13 me Année No. 643

Lundi — 29 — 10 — 1945

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٦٤٣ «القاهرة فى يوم الإثنين ٢٣ ذو القعدة سنة ١٣٦٤ — ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٥» السنة الثالثة عشرة

العـــــدل الانسانى
فى جرائم الحروب

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان بعض النقاد الأوربيين يكتبون عن حروب الإسلام الأولى فيذكرون منها فى معرض النقد أن النبى عليه السلام كان يأمر بعقاب المشركين الذين أساءوا إلى المستضعفين كلما ظفر بهم بعد معركة من المعارك ، ويحسبون أن عقوبة القاتل لا تجوز لخصمه لأنه غير مسئول أمامه فى شرعة القانون.

ومن الواضح أن هؤلاء النقاد قد نسوا أو تناسوا أن الأنبياء مطالبون بإصلاح الفساد حيث كان وليسوا هم حكومة من الحكومات تحاط دعوتهم بالأقاليم والحدود ، فيجوز لهم على هذا الاعتبار ما ليس يجوز لساسة الدول وقواد الجيوش .

ولكن تشاء الأيام — بعد أربعة عشر قرناً — أن يأخذ الأوربيون بمبدأ معاقبة القاتلين الذين يقترفون الجرائم سواء فى ساحة القتال أو فى غير ساحة القتال ، وأن يبنوا ذلك على قاعدة مقررة لا يكثر الخلاف عليها ، وهى أن الدول تسأل عن جرائمها وسيئاتها ، فلا موجب لأن يعفى أفرادها — أو أجزاؤها — من العقاب ، ولا يصح أن يخليهم من التبعة أنهم كانوا مأمورين مكرهين على الطاعة . فإن المتهم المكره لا يعفى من العقاب ، وإن جاز أن تلاحظ حالة الإكراه فى تقدير عقابه ، إذا ثبت أنه كان مسوقاً إلى الجناية بأمر رؤسائه وأصحاب السلطان عليه .

فالآن يجوز للخصم المقاتل الذى لا يطالب بما يطالب به الأنبياء من تعميم الإصلاح — أن يحاسب خصيمه ويعاقبه على الجرائم التى تخالف القانون فى بلاده . فإن كان القانون فى بلاده لا يحرم الجرائم النكراء فقد سقط حقه فى حماية الإنسانية وحماية الشريعة ، وجاز أن ينال العقاب على هذا الاعتبار .

أما الجرائم التى يحاسب عليها المقاتلون فهى القتل والتحريض عليه ، والغدر فى طلب الإيواء أو اصطناع المرض والإصابة ، واستخدام السموم والأسلحة المتفق على منعها ، والإجهاز على الجرحى المستسلمين ، والقسوة على الأسرى والمصابين بالجروح والأمراض أو اختلاس أموالهم التى لا تعتبر من الأموال العمومية ، والتمثيل المعيب بجثث القتلى والأموات ، والاعتداء على المستشفيات والمعابد والمدارس ومخلفات الفنون والآثار ، وإغراق السفن المستسلمة وتخريب المدن المفتوحة التى لا يدافع عنها ، واتخاذ ملابس الجيش الآخر للغدر والتغرير ، ونقض العهود أو شروط التسريح .

هذه وأمثالها هى الجرائم التى تجيز الدول اليوم أن يساق مرتكبوها إلى القضاء ، وأن يتلقوا عليها عقاباً قد يصل إلى الموت

ولم يعرف عن النبي عليه السلام أنه عاتب أحداً من المشركين على جريمة غير هذه الجرائم وأمثالها ، ولا سيما الغدر ونقض الكلمة وتعذيب المستضعفين .

ونقول إن الدول الحديثة قد صنعت خيراً بتقرير هـذا المبدأ السليم في جرائم الحروب ، وأن العمل بهـذا المبدأ سيفيد بعض الفائدة وإن لم تمتنع به الجرائم كل الامتناع ، لأن الجندي الذي يستحضر هذه العقوبات وهو يحمل السلاح خليق أن يتورع عن العدوان مخافة القصاص عند الهزيمة ، وهو لا يأمن الهزيمة كل الأمان ولا يضمن النصر في جميع الأحوال .

وليس من الظلم أن يحيق العقاب بمن يؤمر فيطيع ، لأن الرجل الذي يمثل بالأبرياء ويهتك الأعراض ويقترف المحرمات لأنه أمر بذلك فأطاع لا يعفي من العقاب في وطنه ولا يخليه من التبعة أن يحيل الذنب على آمريه . فلا اختلاف في الأمر إذا حمل السلاح وتجرد للقتال .

وإنما الظلم في رأينا أن يقصر على المجرمين في الأمم المهزومة دون المجرمين في الأمم المنصورة ، لأن الذي يعاقب على الذنب أولى أن يتجنبه ولا يغضي عنه ، وإلا سقطت حجته في الإدانة وتوقيع الجزاء .

نعم إنه منطق الواقع الذي تقرره القوة ، ولكن حكم القوة وحكم الشريعة لا يتفقان ، فلا شريعة حيث يفعل القوي ما يشاء ، ولا قوة حيث يجري العدل في مجراه .

وربما تعذرت التسوية بين المهزومين والمنتصرين في الوقت الحاضر أو في وقت قريب ، لأننا لا نزال قريبين من أحكام الحرب التي لا تحرم على المقاتل وزراً يقترفه في حق إنسان يناصبه العداء أو يلقى له يد السلم على ملأ من الناس .

ولكننا نرجو أن تبلغ الإنسانية هذه المرتبة الرفيعة بعد خطوات لعلها لا تطول .

وأول هـذه الخطوات أن تقام في بلاد المنتصرين أنفسهم محاكم مستقلة على مثال محكمة الغنائم التي تفصل في المنازعات بين حكوماتها وبعض الأفراد المحايدين أو المنسوبين إلى الأعـداء . فقد حدث غير مرة أن قضت هذه المحاكم المستقلة على حكوماتها بالغرامة والتعويض ، فكان فخر الحكومات بقضائهـا المستقل أنفع للأمة من كل مال تخسره في ساحة القضاء .

فإذا قامت هذه المحاكم وجب أن يباح لكل إنسان في أمة مهزومة أن يتقدم إليها بالشكوى من الجنايات التي اقترفها الجنود المنتصرون ، وأن يدان الجناة بالعقوبات التي يدان بها المهزومون ، متى ثبتت جنايتهم بالبرهان الذي لا يقبل المحال .

وموضع الصعوبة هنـا أن تعتبر شهادة المهزوم لتأييد دعوى المهزوم وكلاهما موتور متهم النية والشعور ، ولكن الوقائع لا تثبت كلها بالشهادات ، وليست الشهادات كلها مع هذا بالتي يلتبس فيها الحق والباطل كل الالتباس .

والخطوة الثانية في طريق العدل الإنساني بصدد الجرائم التي تقترف أثنـاء الحروب أن يؤخذ حق القضاء من الدول المنفردة ويوكل إلى هيئة عالمية يتبع في تأليفهـا نظام لا تغيره الهزائم والانتصارات ، ويعرف أعضاؤها وأصول المقاضاة بين يديها قبل أن تعرف مصائر الحروب .

والخطوة الأخيرة — ولعلها لا تحسب من أحلام الخيال — أن تفلح الهيئات الدولية والمواثيق العالمية في منع الحروب وفض الخصومات من طريق التحكيم ، فلا حروب ولا جنايات في أثناء الحروب ولا محاكمات أو عقوبات من جراء تلك الجنايات .

فإذا كان هذا حلماً من أحلام الخيـال فدونه في الطمع أن تقع الحروب ولكن على الفيصل الواضح بين المحقين والمبطلين ، فيتسنى للعالم كله أن ينصر المحق على المبطل ، وأن يحصر شرور القتال في أضيق الحدود .

منى إن تكن حقاً تكن أعذب المنى ! وإلا فهي على كل حال خير من اليأس الدائم من كل مصير .

عباس محمود العقاد

في إرشـــاد الأريب

إلى معرفة الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ١٤ —

* ج ١٣ ص ٣٠ :

غنينا بلا دنيا عن الخلق كلهم وإن ما الغنى إلا عن الشيء لا به

وجاء في الشرح : أن مخففة من إن ، إسمها محذوف والجملة بعدها خبر مفيدة الحصر .

قلت : وليس الغنى إلا عن الشيء لا به .

وقائل الشعر هو علي بن الحسن القُهِستاني . قال ياقوت : كان يميل إلى علوم الأوائل ، ويدمن النظر في الفلسفة ، فقُدح في دينه ، ومقت لذلك . . .

* ج ١ ص ٢٥٦ : كان (إبراهيم بن محمد نفطويه) عالماً بالعربية واللغة والحديث ، أخذ عن ثعلب والمبرد . قال المرزُباني في المقتبس : وكان يخضب بالوسْمة . وكان من طهارة الأخلاق وحسن المجالسة والصدق فيما يرويه على حال ، ما شاهدت عليها أحداً ممن لقيناه .

قلت : في (الصحاح) : الوسمة بكسر السين العِظلم يُختضب به ، وتسكينها لغة . وفي (التاج) : قال الأزهري كلام العرب الوسمة بكسر السين . قاله الفراء وغيره من النحويين .

في (الكامل) : قيل لأعرابي : ألا تخضب بالوسمة ؟ فقال : لم ذاك ؟ فقال : لتصبو إليك النساء . فقال : أما نساؤنا فما يردن منا بديلا ، وأما غيرهن ، فما نلتمس صبوتهن ...

* ج ١١ ص ٤١ :

أقلوا عليّ اللــوم فيها فإنني تخيرتها منهم زُبَيريّة قَلْبا

أحب بني العوّام طراً لحبها ومن حبها أحببت أخوالها كلبا

وجاء في الشرح : ولهـا قلب كقلوب آل الزبير طهارة وحفاظ عهد .

قلت : في الأساس : رجل قلب محض واسط وامرأة قلب وقلبة

قلب عقيلة أقوام ذوي حسب ترمى المقانب عنها والأراجيل

وفي النهاية : كان علي قرشياً قلباً أي خالصاً من صميم قريش .

وفي اللسان : يستوي فيه الذكر والمؤنث والجمع ، وإن شئت ثنيت وجمعت . قال سيبويه[1] : وقالوا هذا عربي قلب وقلباً على الصفة والمصدر ، والصفة أكثر .

الشعر هو لخالد بن يزيد بن معاوية في امرأته رملة بنت الزبير ابن العوام . وهو مقطوعة روى المبرد منها ثلاثة أبيات (منها هذان البيتان) ثم قال : وزيد فيها :

فإن تسلمي أسلم وإن تتنصري يعلق رجال بين أعينهم صلبا

فيُروى أن عبد الملك ذكر له هذا البيت ، فقال له : يا خالد ، أتروي هذا البيت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، على قائله لعنة الله ...

ورواية الكامل (فلا تكثروا فيها اللام) (ومن أجلها أحببت)

* ج ١٨ ص ١٨ : أبو جعفر القاضي الزوزني البحاثي ذكره عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي قال : هو أحد الفضلاء المعروفين ، والشعراء المفلقين ، صاحب التصانيف العجيبة المفيدة جداً وهزلا ، والفائق أهل عصره ظرفا وفضلا ، المحترم بين الأئمة والكبار لفضله مرة ، وللتوقي من حُماة لسانه وعقارب هجائه ثانية . ولقد رزق من الهجاء في النظم والنثر طريقة لم يسبق إليها ، وما ترك أحداً من الكبراء والأئمة والفقهاء وسائر الأصناف من الناس الاهجاه ... ومما حكاه لي (رحمه الله) أنه قال : ما وقع بصري قط على شخص إلا تصور في قلبي هجاؤه قبل أن أكلمه وأجربه أو أخبر حاله ...

وجاء في الشرح : (حُماة) جمع حمة وهي الحية أو إبرتها التي تلدغ بها .

قلت : حُمات بضم الحاء وبالتاء المطولة جمع حمة كثُبة . وفي طبعة (القاموس) : « حماة » مثل قضاة بالهاء أو بالتاء المقصرة . وهو خطأ .

والحمة هي السم كما جاء باللسان . وفي الأساس فوعة السم

(١) قلت : هذا قوله في (الكتاب) : وهذا شيء ينتصب على أنه ليس من اسم الأول ولا هو هو) وذلك قولك : هذا عربي محضاً وهذا عربي قلباً فصار بمنزلة دنيا (بكسر الدال : هو ابن عمي دنيا) وما أشبهه من المصادر وغيرها . والرفع فيه وجه الكلام ، وزعم يونس ذلك ؟ وذلك قولك هذا عربي محض وهذا عربي قح ، ولا يكون القح إلا صفة .

وسورته . وفى اللسان : قال بعضهم الإبرة التي تضرب بها الحية والعقرب والزنبور ونحو ذلك أو تلدغ بها . وفى (أدب الكتاب) لابن قتيبة :... حمة العقرب والزنبور يذهب الناس إلى أنها شوكة العقرب وشوكة الزنبور التي يلسعان بها وذلك غلط؛ إنما الحمة سمها وضرها . وفى (النهاية) : ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة لأن السم منها يخرج .

* ج ١ ص ١٢٣ :

يا حياتى ممن أحب إذا ما   قلت بعد الفراق إنى حييتُ

لو صدقت الهوى حبيباً على الصحة (م)

لما نأى لكنتُ أموت

قلت : (إذا ما قال) (لو صدقتَ الهوى) (لكنتَ تموت) كما روى الخطيب البغدادى فى (تاريخ بغداد) ج ٦ ص ٣٨ ومثله ما رواه الخطيب وياقوت :

غابوا فصار الجسم من بعدهم   ما تنظر العين له فيّا

بأى وجه أتلقاهمُ   إذا رأونى بعدهم حيا ؟

يا خجلتى منهم ومن قولهم   ما ضرك الفقد لنا شيا !

* ج ٩ ص ١٥٢ :... وكان (أبو على الحسن بن محمد المسقلانى) يلقب بالمجيد ذى الفضيلتين ، أحد البلغاء الفصحاء الشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة ، قيل : إن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن البيسانى منها استمد ، وبها اعتد ، وأظنه كتب فى ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر ، لأن فى رسائله جوابات إلى الفساسيرى ..

قلت : البساسيرى بالباء كما ضبط فى (الوفيات) قال ابن خلكان : أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيرى التركى وهو الذى خرج على الإمام القائم بأمر الله ببغداد ، وكان قد قدمه على جميع الأتراك وقلده الأمور بأسرها ، وخُطب له على منابر العراق وخورستان ، فعظم أمره ، وهابته الملوك ثم خرج على الإمام القائم وأخرجه من بغداد ، وخطب للمستنصر العبيدى صاحب مصر ، فراح الإمام القائم إلى أمير العرب محى الدين أبى الحارث صاحب الحديثة وعانة ، فآواه وقام بجميع مايحتاج إليه مدة سنة كاملة حتى جاء طُغْرُلْبَكْ السلجوقى ، وقاتل البساسيرى وقتله ، وعاد القائم إلى بغداد ، وكان دخوله إليها فى مثل اليوم الذى خرج منها بعد حول كامل ، وكان هذا من غرائب الاتفاق..

وقال ابن خلكان فى سيرة المستنصر : وجرى فى أيامه ما لم يجر فى أيام أحد من أهل بيته ... منها قضية البساسيرى فأنه لما عظم أمره ببغداد قطع خطبة القائم وخطب للمستنصر وذلك فى سنة (٤٥٠) ودُعى له على منابرها مدة سنة . ومنها أنه ثار فى أيامه على بن محمد الصليحى وملك بلاد اليمن ، ودُعى للمستنصر على منابرها . ومنها أنه أقام فى الأمر ستين سنة ، وهذا أمر لم يبلغه أحد من أهل بيته ولا من بنى العباس . ومنها أنه حدث فى أيامه الغلاء العظيم الذى ما عهد مثله منذ زمان يوسف ، وأقام سبع سنين ، وأكل الناس بعضهم بعضا حتى قيل : إنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً . وكان المستنصر فى هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلين ليس لهم دواب يركبونها ، وكانوا إذا مشوا يتساقطون فى الطرقات من الجوع . وآخر الأمر توجهت أم المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع وذلك فى سنة (٤٦٢) وتفرق أهل مصر فى البلاد وتشتتوا ، ولم يزل هذا الأمر على شدته حتى تحرك بدر الجمالى من عكا ، وجاء إلى مصر ، وتولى تدبير الأمور فانصلحت .

قلت : (انصلح) فى كلام المتأخرين فى الشعر والنثر كثيرة . أصلح الله الحال والأفعال والأقوال . . . !

* ج ٩ ص ١٧٥ : وكتب (الحسن بن محمد المسقلانى) إلى صارم الدولة بن معروف : أطال الله بقاء الحضرة الصارمية يجرى القدر على حسب أهويتها ، ويعقد الظفر بعزائم ألويتها ، وتحلى بذكرها ترائب الأيام العاطلة ، وتُنجز بكرمها عدات الحظوظ الماطلة .

قلت : الأهوية جمع الهواء ، واليقين أن المسقلانى لا يريد هذا المعنى بل يقصد الهوى (المقصور) ؛ ومن معانيه (مراد النفس) وهذا يجمع على الأهواء . وهو السجع ، وكم أضل ، وكم له من صريع . . .

* ج ١٥ ص ٢١٧ :

تلاحظ عن سحر ، وتسجر عن دجى

وتسفر عن صبح ، وتبسم عن عقد

وجاء فى الشرح : وشعرها المسجر ليل ، وشعر مسجر : مسترسل .

القضاء في الإسلام

قطعة أخرى من محاضرة ألقيت سنة ١٩٤٢ ولم تنشر

الأستاذ علي الطنطاوي

القضاء ، أيها السادة ، مركب وعر ، ومسلك خطر ، وكيف لعمري يستطيع بشر ، لا يعرف من الأمور إلا ظواهرها ، قد خفيت عنه البواطن ، وحجبت الأسرار ... كيف يستطيع أن يقيم حقيقة العدل ، ويصيب كبد الحق ، ويقوم مقام الرسل والأنبياء ، والرسل يتصلون بالسماء بالوحي ، ويسلمون من المعصية بالعصمة ، وهم مع ذلك لم يؤتوا علم الغيب ، وإمام الأنبياء محمد يقول: إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم لتحتكمون إليّ ، ولعل أحدكما ألحن بحجته من صاحبه فأقضي له ، فإنما أقضي له بقطعة من النار[١] — وكيف يهدأ له بال ، ويقر له قرار ، ويلتذ بطعام أو مشرب ، ويطرب ويلعب ، وهو يحمل أثقل عبء حمله إنسان : يريد أن يحقق العدل الإلهي بالوسائل البشرية ، ويقول كلمته هو ، فيسميها كلمة الشرع ، ويصفها بأنها حكم الله ؟

لذلك فزع الصالحون من القضاء ، وفروا منه فراراً ، ورضوا بالسجن ولم يرتضوه ، وصبروا على الضرب ولم يقبلوه . عرض على أبي حنيفة ثلاثاً ، وهو الإمام الأعظم ، فأباه ، فضرب على إبائه تسعين سوطاً وظل على الإباء . وقلد سفيان الثوري القضاء ، وشرطوا له الايعارَض فيه ، فألقى عهده في دجلة واختفى . وطلب ابن وهب ليولى قضاء مصر ، فجمع إخوانه وأهله فشاورهم فقالوا: اقبله فلعل الله يحيي الحق على يديك ! فقال : أكلة في بطونكم ؛

(١) أخرجه الستة ، وقد نقلته هنا بالمعنى .

قلت : (وتسحر عن دجى) استعمل تسحر استعماله تسفر ، والسحر قبيل الصبح آخر الليل ، في الأساس : وإنما سمي السحر استعارة لأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار فهو متنفس الصبح .

في التاج : السحر بفتح فسكون وقد يحرك ، ويضم : الرئة . وقيل هو كل ما تعلق بالحلقوم من قلب وكبد ورئة .

● ج ١٦ ص ٨٤ : ومن كلام الجاحظ : احذر من تأمن كأنك حذر ممن تخاف .

وجاء في الشرح : « في الأصل فإنك » .

قلت : الأصل صحيح .

* ج ١٢ ص ٢٤٨ : قال أبو مروان بن حيان ... وكان (ابن حزم) يحمل علمه هذا (في مذهب أصحاب الظاهر[١]) ويجادل من خالفه فيه ... فلم يك يلطف صدعه[٢] بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه متلقعه إنشاق الخردل ...

(١) مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل (الجباني) .

(٢) الأساس : صدع بالحق : جهر به وصرح مفرقاً بينه وبين الباطل (فاصدع بما تؤمر) .

وجاء في الشرح : المتلقع الذي رمى بالكلام رمياً[١] .

قلت : (وينشقه مُتَعَقِّبه) وتلقع فعل لازم ، وتعقب متعد . في اللسان : واستعقبت الرجل وتعقبته إذا طلبت عورته وعثرته . وفي الأساس : وتعقبت ماصنع فلان : تتبعته ، ولم أجد عن قولك متعقبا أي متفحصاً يعني أنه من السداد والصحة بحيث لا يحتاج إلى تعقب .

قال ابن خلكان : قال أبو العباس بن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين . قال صاعد بن أحمد الجياني في كتاب أخبار الحكماء — كما روى ياقوت — : أخبرني ابنه الفضل أن مبلغ تآليفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التأريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارض نحو (٤٠٠) مجلد ، تشمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . ولأبي محمد ابن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر ، وصناعة الخطابة .

(١) قلت : في اللسان: اللقعة — كهمزة — التي يتلقع بالكلام ولا شيء عنده وراء الكلام .

أردتم أن تأكلوا ديني ؟ ! ثم اختفى وجعل الوالي يطلبه فلا يقدر عليه ، فلما عجز عنه هدم بعض داره . وكان في اختفائه يقول : يا ربّ ، يقدم عليك إخواني غداً علماء حلماء فقهاء ، وأقدم قاضياً ؟ ! لا يارب ، ولو قرضت بالمقاريض !

ولم يكن الولاة يفعلون ذلك تشفياً وانتقاماً ممن أبى الولاية ، بل رغبة منهم في صلاح الأمة بتولية خيارها قضاءها . ومن قبل هؤلاء فرّ إياس من القضاء ، فلما تعذر عليه الفرار ووقع ؛ نهض به نهضة جعلته علماً فيه شامخاً ، وجبلا باذخاً ، وجعلت المثل يضرب به في إصابة قضائه ، وحدة ذكائه ، فيقول القائل : إياس ، ويكتفي

خوّفهم من القضاء أنه محنة لا يدرون ما مغبتها ، وبلاء لا يعرفون ما عاقبته ، أيفلحون فيه أم يخرجون منه وقد حبطت أعمالهم . وزاد خوفهم منه ما ورد في أهله من الوعيد ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم شبه صاحبه بالمذبوح بغير سكين[١] ، وأنه جعل القضاة ثلاثة : قاضياً في الجنة وقاضيين في النار[٢]

* * *

ونظر هؤلاء بعين الورع ، ونظر غيرهم بمنظار الشريعة ، فرأوه كما قال عمر بن الخطاب : فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، وعبادة من أفضل العبادات ، وطاعة من أجل الطاعات ، فرغبوا فيه ، وتقربوا إلى الله به . قال مسروق ، الإمام التابعي الثقة : لأن أقضي يوماً بالحق أحب إلي من أن أرابط سنة في سبيل الله . واستدل على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : عدل ساعة خير من عبادة سنة . وحديث ابن مسعود : إنه لا حسد (يريد لا غبطة) إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، فهو ينفقه في طاعة الله ؛ ورجل آتاه الله علماً ، فهو يعلمه ويقضي به . وقال مكحول فقيه الشام في عصره : لأن أكون قاضياً أحب إلي من أن أكون خازناً . (قال السرخسي) : لأن الخازن يحفظ على المسلمين مالهم ، والقاضي يحفظ عليهم دينهم . وفسر علي رضي الله عنه والعلماء من بعده حديث قاضي النار أنهما : قاض علم علماً فقضى بخلافه ، وقاض جاهل يقضي بغير علم[٣] . وفسروا حديث المذبوح بغير سكين

(١) أخرجه أبو داود والترمذي .
(٢) أبو داود
(٣) وأخرج ذلك أبو داود مرفوعاً .

بأنه القاضي الجائر ، يدل على ذلك ما رووه من قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله مع القاضي ما لم يجر ، يسدده للحق ما لم يرد غيره[١] .

وقد فصل الحنفية فذكروا أن القضاء من فروض الكفاية ، وأن طلبه تعتريه الأحكام الخمسة ، فيكون واجباً إذا لم يكن في الأمة من يصلح له إلا واحد ، فطلب القضاء واجب على ذلك الواحد . ويكون مستحباً إن كان فيها صالحون ولكنه أصلح منهم ، ومباحاً إن كان صالحاً له ويصلح له غيره ، ومكروهاً إن كان غيره أصلح منه . وطلب القضاء حرام على من يعلم من نفسه أنه عاجز عنه ، وأن من طمعه الميل مع الهوى ، ومجاراة الناس ، واتباع المغريات

* * *

وليس كل طالب للقضاء يولاّه ، وما عمل من أعمال الدولة إلا لتوليه شروط ، ولأهله صفات ، باجتماعها تكون التولية ، وبانتفائها يكون الرد ، يعملون بها اليوم في بلادنا حيناً وتهمل أحياناً ، خطأ أو عمداً ، فتوسد الأعمال إلى غير أهلها ، ويدخل فيها غير مستحقيها . أما القضاء عندنا ، فباب الدخول إليه أضيق وشروطه أشد ، ولولا ثغرة كانت[٢] ، ربما ولج منها الضامر الهزيل الذي يمرّ من هذا الشق ، فإذا صار من داخل ترعرع وسمن وصار من أرباب المكان وخلاصة السكان ، فإذا عدونا ذلك لم نجد في أصول تقليد القضاء عندنا مغمزاً

وتعالوا قابلوا بين شرائط تقليد القضاء اليوم ، وقد نص عليها القرار ذو الرقم ٢٣٨ وبين ما اشترطه الفقهاء في القاضي تروا أمرها من أمره قريب ، فقد شرط القرار أن يكون القاضي سورياً ، لأن القضاء مظهر من مظاهر السيادة ، وأداة من أدوات السلطان ، فهو يوسد إلى أبناء الأمة تثبيتاً لسيادتها وتقوية لسلطانها . وشرط الفقهاء أن يكون مسلماً ، لأن الجنسية عند المسلمين هي الدين ، وقد منعوا سماع شهادة غير المسلم على المسلم ، لأنها ولاية ، والله تعالى يقول : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) ، والقضاء بذلك المنع أولى

(١) كذلك جاء لفظه في كتب الحنفية وأخرجه الترمذي بلفظ آخر وقال غريب .
(٢) وسدت وهي الجزيرة كانوا لا يشترطون في القاضي يرسل إليها ما يشترط في قضاة غيرها من ولايات الشام وبقي ذلك إلى سنوات خلت .

واشترط القرار ألا يكون القاضي محكوماً بعقوبة شائنة ، وأن يكون فاضل الخلق ، واشترط الفقهاء العدالة فيه ، وإن ذهب الحنفية إلى صحة ولاية الفاسق إن لم يجاوز في أحكامه حد الشرع مع تأثيم من يولي فاسقاً

واتفق القانون والشرع على اشتراط صحة الحواس في القاضي؛ لأن بها تمييز ما بين الخصوم ، وتمييز المحق من المبطل ، وعلى اشتراط الذكورة في القاضي ، ولم يجوز القانون تقليد امرأة القضاء بين الناس ، وقد قال أبو حنيفة رحمه الله بجواز تقليدها القضاء فيما تصح به شهادتها ، أي في الشرعيات والمدنيات دون الجنائيات ، فمن لي بأفهام هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أنصار المرأة أن الشرع أعطاها أكثر مما يطلبون لها ، وأن مذهبهم يقوم على واحد من شيئين : إما الغفلة وابتغاء ما لا يكون أبداً من تساوي المرأة بالرجل ، وإما المجانة واتخاذ هذه الدعوة مطية يبلغون بها حاجات في نفوسهم

ولم يرو لنا التاريخ خلال هذه العصور الطويلة أن امرأة وليت القضاء ، ولا يكاد يسيغ العقل ذلك ولا الطبع يألفه ، وقد قال الله تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض) ؛ وفسروا الفضل بأنه العقل والدين

واتفقت قوانين اليوم وأحكام الفقه على اشتراط العلم في القاضي ؛ غير أن القانون أوجب نيله ليسانس الحقوق قاضياً شرعياً كان أو مدنياً

وأكثر الفقهاء شرطوا في القاضي أن يكون من أهل الاجتهاد ، واحتجوا بحديث معاذ حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، فقال له : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ، فارتضى ذلك رسول الله ، وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسوله[1] ؛ واحتجوا بأنه عليه الصلاة والسلام كان يجتهد فيما لم يوح إليه حكمه ، ويقضي باجتهاده (ولكن الله لا يقره على الخطأ) ، وأن الاجتهاد كان جائزاً للصحابة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وقال لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بمتصل .

وجاء في المبسوط : إن للقاضي أن يجتهد فيما لا نص فيه ؛ وإنه لا ينبغي أن يدع الاجتهاد في موضعه لخوف الخطأ ؛ فإن ترك الاجتهاد في موضعه بمنزلة الاجتهاد في غير موضعه ؛ فكما أنه لا ينبغي له أن يشتغل بالاجتهاد مع النص ، لا ينبغي له أن يدع الاجتهاد فيما لا نص فيه

غير أن الحنفية ذكروا أن أهلية الاجتهاد شرط الأولوية لا شرط صحة التولية ، وأنه يصح قضاء المقلد إذا قضى بفتوى غيره (الهداية والهندية) ، أما المفتي ، فأجمعوا على اشتراط كونه من أهل الاجتهاد ، أو النظر في الدليل . قال أبو حنيفة : لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا حتى يعرف من أين قلنا . وهذا منتهى ما تصل إليه حرية البحث ، وما تبلغه الروح الاستقلالية في العلم

قال في المبسوط : « وإذا لم يكن القاضي من أهل اجتهاد الرأي ليختار بعض الأقاويل ، سأل المفتين (أي المجتهدين) ، ونظر إلى أفقههم عنده وأورعهم فقضى بفتواه ، وهذا اجتهاد مثله ، ولا يعجل بالحكم إذا لم يبن له الأمر حتى يتفكر فيه ويشاور أهل الفقه لأنه مأمور بالقضاء بالحق ، ولا يستطيع ذلك إلا بالتأمل والمشورة »

ومهما كان من أمر ، فالأصل في القضاء الاجتهاد ، ولا يكون إلا كذلك ، لأن النصوص محدودة ، والوقائع لا تنتهي ، ولا ينقطع الاجتهاد في المسائل الجزئية أبداً ، ومن قال بسد باب الاجتهاد ، إنما أراد به الاجتهاد في غير موضع الحاجة أو الاجتهاد المطلق ، أما الاجتهاد عند وقوع الواقعة لا بد من معرفة حكم الله فيها ، أو عند تبدل العرف الذي بني عليه الحكم الاجتهادي ، فلم يمنعه أحد ولم ينقطع أبداً ، ولا يقلد في هذا الموطن إلا عصي أو غبي كما قال القاضي أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب :

قال الطحاوي (أبو جعفر الإمام الحنفي الكبير) ، وكان كاتب هذا القاضي : كان أبو عبيد يذاكرني بالمسائل فأجبته يوماً في مسألة فقال لي : ما هذا قول أبي حنيفة ، فقلت له : أيها القاضي ، أو كل ما قال أبو حنيفة أقول به ؟ ! قال : ما ظننتك إلا مقلداً ، قلت : وهل يقلد إلا عصي ؟ قال لي : أو غبي . فطارت هذه الكلمة في مصر حتى صارت مثلاً ، وكان ذلك في أول القرن الرابع

***

سمعتم خلاصة الخلاف في هذه المسألة ، وعلمتم أن العزيمة هي كون القاضي من أهل الاجتهاد ، والرخصة التي قال بها الحنفية هي جواز كونه مقلداً يا أيها السادة : إنهم كانوا يختلفون في القاضي هل يجوز له التقليد ، فلم يبق خلاف بيننا اليوم في أن القاضي لا يجوز له الاجتهاد !

ونقل الماوردي ، أن السلطان إذا قال للقاضي قد وليتك فلا تحكم إلا بمذهب فلان (من الأئمة) كان الشرط باطلا ، وكان له أن يحكم بما أداه إليه اجتهاده . ومن الاجتهاد اختيار من يفتى بقوله من المفتين كما جاء في المبسوط .

أما القضاء اليوم فالأهلي منه على مذهب (أئمة) الأفرنج ، كأننا أمة من البرابرة لا دين لها ولا فقه ، ولا كتاب . وقد بدت في سواد هذا الليل خيوط الفجر ، وأوشك أن يفيق النائمون .

وأما الشرعي فعلى مذهب أبي حنيفة ، إلا مسائل بأعيانها جرى العمل فيها (في مصر) على غيره ، منها ما عدل فيه إلى قول معتمد في أحد المذاهب الثلاثة ، ومنها ما خولفت فيه المذاهب الأربعة اجتهاداً ورجوعاً إلى دليل كمسألة طلاق الثلاث دفعة واحدة ووقوع طلقة واحدة به ، ومنها ما خولفت فيه بلا دليل شرعي كمنع سماع دعوى الزواج ممن لم تبلغ سنها السابعة عشرة أو ما لم تسجل في كتاب وقد مات أحد الزوجين — ولو أنهم اجتهدوا في مصر ونظروا في الأدلة لهان الخطب ، ولكن سبيلهم أن يهونوا حكما ، كتوريث ابن الابن مع الابن ، فيحتالوا عليه ، فيسموه وصية إجبارية ، أو يجدوا له مستنداً قولا لمجتهد من المجتهدين الأولين ولو كان مرجوحاً أو منقطعاً سنده ، فيأخذوا به ، وهذا ما سماه ابن عابدين في رسالته اتباع الهوى .

أما القضاء عندنا فليس فيه ابتداع أو مخالفة إلا في مسألة واحدة ولكنا خالفنا فيها ظاهر القرآن وثابت السنة والإجماع . لا تعجبوا يا سادة قبل أن تسمعوا البيان :

نصت المادة ٧ من قرار حقوق العائلة على أنه لا يجوز لأحد أصلا أن يزوج الصغير الذي لم يتم الثانية عشرة ولا الصغيرة التي لم تكمل التاسعة . ونص في المادة ٥٢ منه على أن هذا النكاح فاسد . وفي المادة ٧٧ على أن البقاء على الزوجية ممنوع في هذا النكاح فإذا لم يفترقا يفرق بينهما القاضي .

أما خلافها لظاهر القرآن (وظواهره حجة كما هو محرر في كتب الأصول) فلقوله تعالى : (واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن[1]) . ففهم من ذلك صحة زواج المرأة وطلاقها قبل بلوغها سن الحيض . أما السنة فلزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة في السنة السادسة من عمرها ، والحديث (كما قال في فتح القدير) قريب من المتواتر . وقد انعقد الاجماع على أن حكمه عام وليس خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بعائشة . وقد زوج الزبير ابنته لقدامة بن مظعون يوم ولدت ، ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة مع علمهم به . أفنكاح قدامة بنت الزبير نكاح فاسد يا أيها السادة ؟ أم انه يجب التفريق بين محمد سيد النبيين وإمام المرسلين ، وعائشة أم المؤمنين ، لأن قرار حقوق العائلة يمنع بقاءها على الزوجية ؟ أم إنه يزعم أن أحكام الإسلام تتبدل ولو نطق بها القرآن وجاءت بها السنة المتواترة وانعقد عليها الإجماع ؟

سيقول قائل منكم أو من غيركم إن قانون العائلة وضعه فحول من العلماء ، وعرض على شيخ الإسلام وأمر به السلطان واستند فيه إلى اجتهاد ابن شبرمة وأبي بكر بن الأصم .

لا يا سادة ، إنه لا شيخ الإسلام ، ولا السلطان ، ولا مائة مجتهد يستطيعون مخالفة الكتاب والسنة والإجماع ، وما أحسب قاضياً يخاف الله ويعرف طرق العلم يحكم بغير ما أنزل الله فيصح فيه الوصف بالفسق والظلم والكفر ، وقد وصف الله بها من لم يحكم بما أنزل الله ، فكيف بمن يحكم بخلافه ؟!

وإني أحب أن أسركم فأخبركم بأن هذه المادة قد وضعت من أكثر من ثلاثين سنة ، ولكن قاضياً واحداً لم يقض بها ، فلم يبق منها إلا سواد الحبر في بياض الورق ، ذلك لتعلموا أن هذا القرآن قد تولى الله حفظه وحمايته « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وأن قلعة يدافع عنها الله لا يستطيع أن يقتحمها بشر[2] !

علي الطنطاوي

(١) سورة الطلاق

(٢) ونحن مع ذلك ننصح الناس ألا يزوّجوا الصغيرات حتى يبلغن ، ونؤخر عقودهن في المحكمة ، ولا نسجل عقداً إلا لبالغة مبلغ النساء ، ولكنا لا ننقض عقداً أبرمته الشريعة ، ولا نحرم ما أحل الله ، ولا يسوقن أحد ما في تزويج الصغار من مضرة يراها ، بل السبيل أن يسوق من شاء الكلام شرعياً أصولياً فينظر في الأدلة وقوتها وما يفهم منها ؛ فإذا صحت الأدلة وكان ذلك جائزاً في الشرع تلقاه لأن الشرع في نظر المسلم يكفل المنافع ويدرأ المفاسد كلها ، ولا يقر مفسدة ، والفرق واضح بين عدم تزويج الصغار ، وبين الحكم بفساد العقد بعد عقده ، لأن التزويج للولي أو القاضي إن كانت الولاية إليه له أن يزوج أو يدع ، ولكن العقد إن أبرم فلا ينتقض إلا بموت أو طلاق أو تفريق أمر به الشرع .

ملحمة الحرب والسلام

دراسة تحليلية لفكرة الحرب وعواملها والسلام وأسسه

للأستاذ فؤاد عوض واصف

يكاد يكون الشعار الغالب فى حياة البدائى الأخلاقية هو أن يكون الإنسان سعيد الحظ فى الحرب يقتل من استطاع من الأعداء . وأنجح الكشوف هو ذلك الذى يهيء للقبائل البدائية اقتناص أكبر عدد من الأجانب والعودة بجماجمهم ، يجمعونها فى حرز حريز لأنها الثروة التى بها يتفاخرون ، وهى ضمان الشجاعة والشرف التى بها يتقدم البدائى إلى عروسه فى فخر وخيلاء[1] ...

فإذا انتقلنا إلى شعوب أكثر حضارة وجدنا أن الوحدة الاجتماعية تكبر وتتميز ؛ وكلما قويت الوحدة الإجتماعية ازداد الشعب استنكاراً لجريمة القتل ؛ إلا أن النظرة إلى الأجنبى تظل محتفظة بآثارها الموروثة عن القبيلة . فقوانين الملك اين iine تصور لنا كيف كانت حياة الأجنبى رخيصة فى بلاد اليونان فى العصور الأولى ، فلم يكن له أى حق قانونى . وكذلك كان الحال فى الشعوب الرومانية القديمة ؛ فالكلمة اللاتينية Hostis ومعناها عدو كانت تعنى الأجنبى أيضاً . فالأجنبى والعدو يدل عليهما بكلمة واحدة . والذى يدلنا على مدى نظرة هذه الشعوب — ومن شابهها فى درجة الحضارة — إلى الأجنبى ، تلك السهولة التى كانوا يقابلون بها حروبهم مع الأجانب . وفى التاريخ المصرى القديم لا نشاهد أية صيحة على الحروب وأهوالها ، وكأنما الحرب ضرورة مادام هنالك أجنبى . وكذلك الحال عند العبرانيين القدماء إذ كانوا يتصورون أن الحياة حق مقصور عليهم وعلى نسلهم . وعند العرب فى الجاهلية كانت القبائل تتحارب لأتفه الأسباب ، ومن ذلك ما يروى عن أيامهم ، فيوم النباج وثيتل مثلاً كان من الوقائع التى أثارها حب الغزو فحسب[1] .

وكل هذا يدلنا على أنه إذا كان نطاق القتل داخل البلاد قد ضاق كثيراً عنه فى الشعوب البدائية ، فقد ظل الأجنبى منظوراً إليه بنظرة لا تختلف عن نظرة الشعوب البدائية .

* * *

ولما دخلت المسيحية فى أوربا أشاعت احترام الحياة الإنسانية بدرجة لم تعرف فى العصور السابقة . وكان المسيحيون فى عصورهم الأولى يرون أن القتل فى جميع صوره خطيئة كبرى . وفى هذا يقول ترتيليو[2] Tertulion : هل من الممكن أن يكون لنا حق امتشاق الحسام والسيد المسيح نفسه قد صرح لتلاميذه أن « ... كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون[3] » .

ولئن كان السيد المسيح قد أمر بطرس بأن يرد سيفه إلى غمده عندما أراد بطرس أن يقاتل أعداء المسيح ، فإنما كان يعنى المسيح بهذا أن امتشاق الحسام محرم على كل جندى فى المستقبل .

وفى سنة ٣١٤ م صدر أمر بأن يحاكم كل جندى يترك سلاحه من أجل الدين ، وذلك لأن البلاد كانت مهددة بغارات الأعداء . وهكذا نرى أن فكرة الحرب بدأت تعود ؛ وأن آباء القرن الرابع والخامس الميلادى قد أخذوا يبررون امتشاق الحسام ؛ حتى إذا جاء القديس أوغسطين ذهب إلى أبعد من هذا حين أراد تفسير العهد الجديد تفسيراً لا يتعارض مع فكرة الحرب ، وعنده أن السيد المسيح عند ما أمر بطرس بأن يرد سيفه إلى غمده لم يكن يعنى كل جندى وإنما كان يعنى بطرس بالذات لأن امتشاقه الحسام لم يكن قانونياً . وينتهى أوغسطين من هذا بقوله : « إذا كان السلام هو الخير الأسمى وكانت مدينة الله قد أقيمت من سلام أزلى فإن الحرب فى بعض الأحايين ضرورة لهذا العالم المتلىء بالخطيئة[4] » .

نجد فى كلام القديس أوغسطين تحولا جديداً فى فكرة

(1) L'origine et le developpement des Idées Morales Westermarck Tomé I P. 340.

(١) كتاب العرب قبل الإسلام : جورجى زيدان ص ٢٢٧

(٢) L'origine - des Idées Morales : Westermarck I p. 354

(٣) انجيل متى إصحاح ٢٦ آية ٥٢

(٤) L'origine- des Morales : Westermarck I p 356

الحرب عمز أتباعه على تدعيمه قائلين إنه ليس ثمة تعارض بين أن يكون الإنسان مسيحياً وجندياً في الوقت نفسه. وانتهى الأمر بأن يتناول الفارس سيفه من القسيس الذي يباركه ويقول له تلك العبارة باللاتينية:

« Serve Christi, Sismiis, In Nomene iPatris Filii Ch Spiritus Sancti Amen » أعني: في خدمة سيدك المسيح تتناول حسامك أيها الجندي باسم الأب والابن والروح القدس آمين. وهكذا أصبح الجندي يعتشق الحسام باسم الله، والحرب أصبحت قضاء من الله، والنصر هبة من هباته.

وفي العصور الوسطى أيضاً كانت الحرب قضاء من الله. فاللورد بيكون يرى أن الحرب هي الوسيلة المثلى التي يتجلى بها الحق واضحاً، إذ يحتكم الله عز جلاله بين الأمراء المتنازعين. ويقول لاهوتي في هذا الصدد، إن الحرب مرآة تقرب إلينا صورة الله « فليس كرائحة البارود عطر يستطيع من يتنسمه أن يتعرف الحق السماوي في صورته العليا ... »

ولكن النزعة السلمية لم تعدم الأنصار في أوربا في تلك الآونة؛ ففي القرن الرابع عشر ظهرت جماعة اللولارد Les Lollards وقالوا إن الحرب في جميع صورها تتعارض مع تعاليم الإنجيل. وإن سلاماً غير عادل أكرم من حرب عادلة. ويقول « ارازم » إن الحرب ليست وحشية فحسب بل هي أكثر من ذلك، لأن الإنسان القاتل أكثر وحشية من الوحش نفسه، لأن الطبيعة إذا كانت قد هيأت الوحوش للحرب فإنها على العكس لم تهيء الإنسان للحرب؛ ومن ذهب إلى الحرب فليعلن أنه يعتشق الحسام ضد الطبيعة وضد الله وضد الإنسان ...

وجماعة الكويكرز ترى أن الحرب أيا كانت تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس؛ وإذا كانت نهاية الإنسان هي الخلود فإن مستقبل فرد واحد في الآخرة يفوق كل خير دنيوي لأمة بأسرها ...

ومن هنا نرى أن الناس قد انقسموا أمام فكرة الحرب، في تلك الآونة، إلى فريقين: فريق يرى أن الحرب مرآة فيها يتجلى الحق السماوي، وفريق يرى أن الحرب تتعارض مع تعاليم المسيحية، وأن سلاماً غير عادل أفضل من حرب عادلة.

* * *

وأما الحال عند العرب فقد عرفنا أن الإسلام قد أبطل الكثير من عاداتهم القديمة وجعل القتل جريمة كبرى. وقد نص القرآن الكريم على هذا بقوله: « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ».

ولكن القرآن قد حث من جهة أخرى على مقاتلة الكفرة في ظروف معينة إذ يحق للعرب أن يعتبروا « الجنة في ظلال السيوف[1] ». وفي هذا يقول الله لنبيه: « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » وهكذا يكون الإسلام قد أجاز الحرب في ظروف خاصة.

* * *

وفي القرن الرابع عشر ظهرت في أوربا طائفة الموسوعيين Encyclopedists وعلى رأسهم ديدرو الذي استطاع أن يجمع إليه عدداً من أشهر فلاسفة أوربا من أمثال فولتير وروسو. والفلاسفة — في الانسيكلوبيديا — وإن تباينت آراؤهم قد اتفقوا في معاداتهم للمبادىء الكاثوليكية[2] ولم تكن إذ ذاك سلمية. ولقد قام فلاسفة الانسيكلوبدية بدعوة سلمية معتدلة تختلف عن دعوة ارازم، ففولتير وإن يكن يعترف بأن الحرب واجبة في بعض الأوقات إلا أنه ينعى عليها شرورها ويقول إن الذي يجر الناس إليها طمع الأمراء وجشعهم.

ونحن نجد أيضاً عند فلاسفة النهضة الحديثة من أمثال كانت وبنتام وروسو نزعات معادية للحرب. ولكن ظهر رد فعل لهذه النزعات، في نزعة قومية زعم أنصارها أن وحدة عالمية ليست إلا حلماً فظيعاً؛ فليس ثمة ضمان للفضيلة عندهم إلا بوجود القوميات؛ وهكذا أخذوا ينفخون في نفير الحرب لأنها مقياس الحق ولأنها منبع ترتوي منه الفضيلة فيشتد عودها ويتقوى ساعدها. والحرب عند نيتشة قد جلبت للانسانية من الخيرات

(١) Ibid P. 347

(٢) تاريخ التمدن الحديث تأليف سنيوبوس وتعريب دار الهلال ص ٤٦

أضعاف ما جلبه الحب الإنسانى . وهى عنـد راسكين أم الفنون وجميع الفضائل الدنية . ولقد أصبحت الحياة عنـد هؤلاء حق يغتصبه القوى من الضعيف . وإن الصراع من أجل الحياة بين الأقوياء والضعفاء سيتمخض عن الإنسان الأعلى Superman الذى يعلو على أعقاب الضعفاء[1] ويقضى على جيلهم . إن فلسفة القوميات فى الواقع هى فلسفة قوة وحروب وسيطرة .

وبعد سقوط نابليون شاع فى العالم الرغبة فى سلام طويل . ولكنها كانت فترة قصيرة تلك التى شاع فيها حب السلام استيقظت بعـــدها صيحة القوميات وتعطشها إلى الحرب والسيطرة .

* * *

عرضنا فيما سبق استقراء عاماً لفكرة الحرب وتحولها فى أحقاب التاريخ . وإن نظرة واحدة إلى ما أمامنا من العناصر لكافية بأن تخرجنا بحقيقة أشبه بأن تكون يقينية ، إن كان هنالك ثمة يقين فى مجال العلم الحديث ...

لقد وجدنا أن فكرة الحرب من المعانى الخلقية التى لم تثبت على حال واحدة ، بل اختلفت وتبدلت باختلاف الشعوب والعصور؛ فبينا نرى الحرب فى بعض الأحايين خيراً أسمى بل وضماناً للفضيلة ، نراها فى أحايين أخرى شراً مستطيراً ، أولى بالحيوانات الكاسرة منها بالإنسان الأخلاق ...

هذا الاختـلاف فى نظرة الإنسان إلى معين الحرب نتيجة لعوامل اجتماعية تشكل الوجدان الأخلاق فتارة تغلّب عليه فكرة الحرب فيراها الإنسان خيرا ، وتارة تغلب عليه فكرة السلام فتبدو الحرب للانسان شراً ليس بعده شر .

فكرة الحرب إذاً من المعانى النسبية ، تخضع لعوامل اجتماعية معينة تتولد منها وتزول بزوالها .

والتاريخ يدلنا على ألوان أخرى من القتال غير الحروب بصورتها الحالية وذلك مثل الحروب الخاصة Les gucrres privs والثأر للدم والمبارزة بين الأفراد وغيرها . وقد كانت هذه الأنواع من القتال تتولد تحت ظروف اجتماعية معينة ، وكانت تبدو للضمير الجمعى فى صورة بطولة وشرف . حتى إذا زالت العوامل الاجتماعية المولدة زالت معها أنواع القتال المختلفة ، وأصبحت نظرة الناس إليها غير تلك النظرة السابقة ...

لذلك ليس بصحيح ما يزعمه بعض العلماء من أن الحرب ضرورة فى فطرة الانسان ، فكما أن خلايا الجسم تتحارب فتتولد الحياة الفردية ؛ كذلك يتحارب الناس فتتولد الحياة الاجتماعية . إنما الحرب كما أثبت الاستقراء التاريخى ، نتيجة لعوامل اجتماعية خاصة قابلة لأن تزول ، وعندئذ تصبح فكرة الحرب من المعانى المجهولة ، كما أن الكثير من أنواع القتل كالمبارزة بين الأفراد أصبحنا نجهله كل الجهل .

وعند العلامة سترمارك أن أنصار السلام يزدادون يوماً بعد يوم ، وهكذا عندما تنحسر موجة القوميات — وهى العوامل الإجتماعية المولدة للحروب فى عصورنا — ولا يعود الناس ينظرون إلى الحرب والسلام بالمنظار القوى ، فإن كل الدلائل تدل على أن الصيحة ضد الاستبداد المنبثة من القوميات ستخفت ، كما خفت غيرها من صيحات الحروب الخاصة والثأر للدم ...

وإن لنا الدليل كل الدليل فى أن العالم يتجه نحو وحدة عالية ، تتلاشى عندها الدوافع القومية وتختفى معالمها ، وذلك فى روح المذاهب السياسية للدول المتصيرة فى هــذه الحرب . فالديموقراطية تنعت بأنها مبدأ يعلو على القومية Super-national وكذلك الاشتراكية الحديثة فى روسيا (البلشفية) ليست مبدأ قومياً ، وإنما هى ترمى فى النهاية إلى وحدة عالية شأنها فى ذلك شأن الديموقراطية . فى حين أننا نرى الفاشيستية والاشتراكية القومية (النازية) تنظران إلى وحدة عالية كحلم فظيع ، نرى أن الديموقراطية والبلشفية تتجهان فى جوهرها إلى وحدة عالمية يسودها الوئام والسلام ...

إن ملحمة الحرب ملحمة طويلة وحافلة ، ولـكن لهـــا — ككل قصة فى الحياة — نهاية وخاتمة ؟

فؤاد عوض واصف

ليسانيه فى الفلسفة

(1) On ukir el meden Knouledc W. Rore p. 36

رأى جديد في

حمـــــاد الراوية

للأستاذ السيد يعقوب بكر

١ — منهج البحث

لعل أهم ما أقصد إليه في هذا البحث هو تمحيص رواية حماد (أعني روايته للشعر)؛ فقد أكثرت كتب الطبقات من ذكر أخباره والأحداث التي تقلبت عليه، ولكنها لم تعرض لروايته كما يعرض العلماء لمواضيع بحثهم، ولم تمحصها كما يجب أن تمحص الأشياء، وكل ما فعلته أنها اتهمته بالوضع والانتحال وذكرت من أخبار انتحاله الشيء الكثير.

أقول: لعل أهم ما أقصد إليه في هذا البحث هو تمحيص رواية حماد. ولكنني قبل أن أمحص هذه الرواية، يجب علي أن أعرض لحياة هذا الراوية في عصره وللراوية في هذا العصر؛ فلعل اكتناه حياته والرواية في عصره يأخذ بيدنا عند تمحيص روايته؛ ولعله يكشف لنا منها جوانب ما كنا لنفطن لها لولاه؛ ولعله يكشف لنا عن الدواعي التي حدت به إلى أن يضع إن كان قد وضع حقا، أو الدواعي التي جعلت الرواة يتحاملون عليه إن كان هو من الوضع براء.

هذا منهج من البحث لا أشك في أنه سيصل بي إلى النتيجة الحق. ذلك لأنه منهج قائم على أساس صحيح؛ فهو يربط بين حماد راوية وبينه إنسانا في ذاته وإنسانا في مجتمع، وهو يربط بين روايته ومجرى الرواية في عصره. والدراسات الأدبية لا يمكن أن تؤدي إلى الحقيقة مالم تربط بين من تدرسه وبين نفسه وبيئته.

٢ — حياة حماد

يقول ابن قتيبة[١] في كتاب المعارف (ص ١٨٣): هو حماد بن هرمز؛ وكان هرمز من سبي مكنف بن زيد الخيل، وكان ديلميا يكنى أبا ليلى. ويقول في كتاب الشعر والشعراء (ص ١٥٧ M. J. De Goeje): وحماد الراوية مولى مكنف.

وفي الأغاني[١] (ج ٥ ص ١٦٤ ط بولاق) أن الأصمعي سأل حمادا: ممن أنتم؟ فقال حماد: كان أبي من سبي سلمان بن ربيعة، فطرحتنا سلمان لبني شيبان، فولاؤنا لهم.

ويقول ابن النديم[٢] في الفهرست (ص ٩١ ط فلوجل) إنه: أبو القاسم حماد بن سابور[٣] بن المبارك بن عبيد؛ وكان سابور يكنى أبا ليلى، من سبي الديلم، سباه ابن عروة بن زيد الخيل[٤] ووهبه لابنته ليلى يخدمها خمسين سنة، ثم ماتت، فبيع بمائتي درهم، فاشتراه عامر بن مطر الشيباني وأعتقه.

ويقول ياقوت[٥] في معجم الأدباء (ج ٤ ص ١٣٧ ط مرجليوث) إنه حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي؛ مولى بني بكر بن وائل، وقيل مولى مكنف بن زيد الخيل الكوفي المعروف بالراوية

ويقول ابن خلكان[٦] في وفيات الأعيان (ص ٢٤٠ ط باريس) إنه أبو القاسم حماد بن أبي ليلى سابور، وقيل ميسرة ابن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي.

فظاهر من هذه الروايات الخمس أن حمادا ديلمي الأصل؛ وأنه من الموالي، وإن كان قد اختلف في ولائه: لمن. على أن هذا اختلاف في الظاهر. فنحن إذا أخذنا برواية ابن النديم استبان لنا أن ولاء حماد كان لابن زيد الخيل (ابن عروة كما يقول ابن النديم، أو مكنف كما يقول ابن قتيبة وياقوت)، ثم كان لعامر بن مطر الشيباني. وشيبان بن ثعلبة، وثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر. وهكذا نفهم تردد ولاء حماد بين ابن زيد الخيل وبني شيبان وبني بكر بن وائل. ولكننا لا نجد بعد هذا تفسيرا لما يقوله حماد من أن أباه كان من سبي سلمان بن ربيعة، فنحن لا نعرف من هم بنو سلمان هؤلاء.

والديلم — كما يقول هيار Huart في كتابه: Littérature Arabe (ص ٥٨) — هم ذلك الجنس المائل الذي كان يحتقر العرب؛ والذي كان يسكن جبال جيلان الوعرة

(١) توفي سنة ٢٧٦ أو ٢٧١ أو ٢٧٠ هـ

(١) توفي أبو الفرج سنة ٣٥٦ هـ

(٢) توفي سنة ٣٨٥ هـ

(٣) في الفارسية Shahpur

(٤) كان زعيما لطيء

(٥) توفي سنة ٦٢٦ هـ

(٦) توفي سنة ٦٨١ هـ

مستقلا غير خاضع لسلطة ما ؛ والتى استولى على بغداد باسم بنى بويه ، تجرد الخلافة من سلطتها الزمنية ، ولم يبق لها إلا سلطة روحية محضا . وكان لحن حماد ينم من أصله الأعجمى .

وظاهر من هذه الروايات أيضاً أن هناك خلافاً حول اسم أبى حماد . فابن قتيبة يقول إنه هرمز ، وهو فى هذا يوافق الجاحظ[1] فيما يحكيه عنه السيوطى فى المزهر (ج ٢ ص ٣٠٦) وابن النديم يقول إنه سابور ؛ ويتابعه فى هذا هيار (ص ٥٨) ، وتشارلز ليال Charles Lyall فى كتابه : Translation of Ancient Arabian Poetry (المقدمة ؛ هامش ص ٣٩) وفى مقدمته لترجمة المفضليات (هامش ص ١٣) : وياقوت يقول إنه ميسرة[2] ، وهو فى هذا يوافق الهيثم بن عدى فيما يحكيه عنه أبو الفرج فى الأغانى (ج ٥ ص ١٦٤) والبغدادى فى خزانة الأدب (ج ٤ ص ١٢٩ ط بولاق) .

وقد ولد حماد بالكوفة . واختلف فى تاريخ ميلاده ؛ فهو عند ابن النديم (ص ٩١) سنة ٧٥ هـ ، وينقل عنه فى هذا بروكلمان فى كتابه : Geoch. ol. a. Litt (ج ١ ص ٦٣) وهو عند ياقوت (ص ١٤٠) سنة ٩٥ هـ ، ويتابعه فى هذا ابن خلكان (ص ٢٤١) . كذلك اختلف فى تاريخ وفاته ؛ فهو عند ابن النديم (ص ٩١) سنة ١٥٦ هـ ، وهو عند ياقوت (ص ١٤٠) وابن خلكان (ص ٢٤١) سنة ١٥٥ هـ .

وحماد من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية . فتشارلز ليال يقول فى كتابه الأول : (المقدمة ، هامش ص ٣٩) : « علا ذكر حماد الراوية بن سابور الفارسى الأصل وجامع المعلقات ومعظم شعر امرىء القيس فى دولة بنى أمية خاصة ، منذ عهد يزيد الثانى (يعنى يزيد بن عبد الملك) (١٠١—١٠٥) حتى سقوطها سنة ١٣٢ ، وبعد ذلك عاش فى عصرى المنصور والمهدى » . فالذى يؤخذ من قول هذا المستشرق أن حمادا لم يدرك عصرا بعد عصر المهدى ، وهو فى هذا يتابع ما يرويه ابن خلكان إذ يقول (ص ٢٤١) : « وقيل إنه توفى فى خلافة المهدى » . على أننا نجد فى الأغانى (ج ٣ ص ٨٠) هذه الرواية : « ذكر أبو أيوب المدنى أن حمادا الراوية حدثه ، قال : رأيت عبد الرحيم الثقاف أيام هرون الرشيد بالرقة ... » ، وهى رواية صريحة الإشارة إلى أن حمادا أدرك عصر الرشيد ، ولكننا لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن نرجحها على سائر الروايات التى تقف بحياة حماد قبل عصر المهدى ، أو عن هذا العصر ، بل إننا لا نظن حمادا قد أدرك عصر المهدى كما تقول الرواية التى أشار إليها ابن خلكان . فحماد قد توفى سنة ١٥٦ هـ كما يقول ابن النديم ، أو سنة ١٥٥ هـ كما يقول ياقوت وابن خلكان ؛ بينما أن المهدى تولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ . والرواية التى يشير إليها ابن خلكان غير صريحة النسبة ، وهى لا تذكر تاريخا معينا . وقد رجع تشارلز ليال عما قاله فى كتابه الأول (المقدمة ، هامش ص ٣٩) من أن حمادا توفى سنة ١٦٠ هـ ، وجعل يشك فى أن حمادا أدرك عصر المهدى ، وهذا فى مقدمته لترجمة المفضليات (ص ١٨) . ويبدو لنا أنه فى الكتاب الأول قد أخذ بمفهوم الرواية التى يشير إليها ابن خلكان ، فافترض سنة ١٦٠ هـ تاريخا لوفاة حماد ، أى بعد ولاية المهدى الخلافة . وهذا افتراض محض ، لأن المراجع العربية لم تذكر هذا التاريخ .

وقال ابن النطاح (الأغانى ج ٥ ص ١٧١ ، وخزانة الأدب ص ١٣١) : « كان حماد الراوية فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه فبلغ فى العلم ما بلغ » . وهذه الرواية — إن صحت — تدلنا على طور من أطوار حياة حماد ، لا بد أنه خلف فى نفسه أثراً ، ولا بد أنه كيف مزاجه تكييفا خاصا .

وكان خلفاء بنى أمية يقدمون حمادا ويؤثرونه ، وكثيرا ما كانوا يستحضرونه لينشدهم ويسألوه ، فكان يفد عليهم فيجزلون صلته . وروى أنه كان منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك فى خلافته ، فأسخط هذا هشاما أخا الخليفة وولى عهده ؛ فلما تولى هذا الخلافة خاف حماد على نفسه ، فلزم بيته سنة لا يبرحه ؛ ولكن هشاما لم يلبث أن استدعاه إلى دمشق ليسأله عن بيت من الشعر : من قاله ؟ فلما أجابه وأنشده أجازه وأحسن صلته . وهذه

(١) توفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) يبدو لتشارلز ليال فى مقدمته لترجمة المفضليات (هامش ص ١٣) أن ميسرة — وهو اسم عربى — قد أطلق على أبى حماد ، هرمز أو سابور ، حين ولائه .

القصة مذكورة في معظم المراجع التي بين يدينا ؛ وهي مذكورة على سبيل المثال في الأغاني (ج٥ص ١٦٦-١٦٧)، وقد استغرق ذكرها جلّ ما كتبه صاحب نزهة الألباء عن حماد (ص ٤٤ — ٥٠) ، وذكرها السيوطي في تحفة المجالس ونزهة المجالس (ص ٦٩ — ٧١ ط مطر السعادة) . ولكن الأستاذ أرندنك Arendonk ، كاتب مادة حماد الراوية في الموسوعة الإسلامية ، يشك في صحة هذه القصة فهو يرى أنها لا يمكن أن تقع في مثل هذا التاريخ ؛ وأن سماتها تشبه سمات قصة تروى عن الزايد الثاني (يعني الوليد بن يزيد) الذي كان خاصة يستمع إلى حماد كثيراً . ويشك أبو الفرج (ج ٥ ص ١٦٧) في صحة جانب من هذه القصة ، وهو أمر هشام الجاريتين المذكورتين في القصة بسقى حماد الخمر ؛ لأن هشاما — كما يقول أبو الفرج — لم يكن يشرب ولا يسقى أحدٌ بحضرته مُسكرا ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه . كما أن ابن خلكان يشك في جانب آخر من القصة ، وهو أمر هشام يوسف بن عمر الثقفي باستدعاء حماد ؛ فهو يقول (ص ٢٤١) : « وما يمكن أن تكون هذه الواقعة مع يوسف بن عمر الثقفي لأنه لم يكن واليا بالعراق في التاريخ المذكور بل كان متوليه خالد بن عبد الله القسري » . وفي اعتراض ابن خلكان تفسير للشطر الأول من اعتراض أرندنك .

ويبدو لنا أن قصة حماد مع الوليد بن يزيد التي يشير إليها أرندنك في الشطر الثاني من اعتراضه هي التي رواها أبو الفرج في الأغاني (ج ٦ ص ١٢٨) حيث قال : « ... قال (أي حماد) : دخلت يوماً على الوليد ، وكان آخر يوم لقيته فيه ، فاستنشدني ، فأنشدته كل ضرب من شعر الجاهلية والإسلام ، فما هشّ لشيء منه ، حتى أخذت في السخف فأنشدته لعماد بن ذي كنانة مجتبناً ... فضحك حتى استلقى ، وطرب ودعا بالشراب ، فشرب ، وجعل يستعيدني الأبيات ، فأعيدها ، حتى سكر ، وأمر لي بجائزة ، فعلمت أن أمره قد أدبر . ثم دخلت على أبي مسلم ، فاستنشدني ، فأنشدته قول الأخوة :

لنا معاشر لم يبنوا لقومهم

فلما بلغت إلى قوله :

تُهدى الأمورُ بأهل الرشد ما صلحت
وإن تولّت فبالأشرار تنقاد

قال : أنا ذلك الذي تنقاد به الناس ، فأيقنت حينئذ أن أمره مقبل » .

على أن هذه القصة غير صحيحة فيما يبدو لنا . فإن أبا مسلم الخراساني لم يبرز إلى الميدان السياسيّ إلا سنة ١٢٩ هـ ، أي بعد وفاة الوليد بن يزيد بثلاث سنين . وأغلب الظن أنها من وضع دُعاة العباسيين وضعوها تشهيراً بالوليد وإظهاراً لما كانت عليه دولة بني أمية من انحلال وما كانت عليه الدعوة العباسية من فتوّة . وهكذا يسقط الشطر الثاني من اعتراض أرندنك .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان حماد ذا حظوة لدى يزيد ابن عبد الملك ، ثم لدى الوليد بن يزيد من بعده . وتفسير هذه الحظوة يسير . فقد كان الخليفتان يحبان اللهو والمجون ، وكانا يجدان في حماد ما يوائم ذينك اللهو والمجون من شعر سافر ومذهب داعر .

على أنه لم يكن ذا حظوة لدى العباسيين . يظهر هذا مما يرويه أبو الفرج (ج١٢ ص١٠٢) إذ يقول : « ... كان مطيع بن إياس منقطعاً إلى جعفر بن المنصور ، فطالت صحبته له من غير فائدة ، فاجتمع يوماً مطيع وحماد عجرد ويحيى بن زياد ، فتذاكروا أيام بني أمية وسعتها ونضرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكهم وطيب دارهم بالشام وما هم فيه ببغداد من القحط في أيام المنصور وشدة الحر وخشونة العيش وشكوا الفقر فأكثروا ... » ؛ ومما يرويه أبو الفرج (ج ٥ ص ١٦٩ — ١٧٠) والبغدادي (ص ١٣٠ — ١٣١) من أن جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروف بابن الكردية كان يستخف مطيع بن إياس ويحبه ، وكان منقطعاً إليه ، وله منه منزلة حسنة ، فذكر مطيع حماداً وكان صديقه وكان مطرحا مجفواً في أيامهم ، فقال له : ائتنا به لنراه ، فأتى مطيع حماداً فأعلمه بذلك وأمره بالمصير إليه ومعه ، فقال له حماد : دعني فإن دولتي كانت مع بني أمية ومالي مع هؤلاء خير ، فأبى مطيع إلا الذهاب به ، فلما أتيا جعفر استنشد هذا حماداً فأنشده قصيدة جرير التي مطلعها :

بان الخليطُ برامتين فودّعوا أوَ كلّما اعتزموا لبين تجزعُ

فلما وصل إلى قول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

أبدى جعفر نفوره من لفظ بوزع ، وأمر غلمانه بصفع حماد

وجرّ رجله . ويقول أرندنك إنه «كان أحد الشعراء الذين خرجوا عن بغداد فى عهد المنصور فى طلب المعاش فذهب إلى الكوفة[1] ؛ ولكن يُقال إن المنصور استدعاه ثانية إلى بغداد من البصرة » .

ومن اليسير علينا أن نفسر إعراض العباسيين عن حماد ورفاقه . فقد كان العباسيون فى أول أمرهم يأخذون الحياة مأخذ الجد ، ويصطنعون الصرامة والقسوة ، ويعملون على تدعيم ملكهم الوليد . وما كان لمثل هؤلاء أن يُقبلوا على حماد ورفاقه ، وأن يسوغوا لهوهم ومجونهم . هذا إلى أن حماداً ورفاقه كانوا من المقربين إلى بنى أمية ، وما كان للعباسيين أن يقربوا من كان هواهم مع أعدائهم .

وقد اشتهر حماد بمجونه واستهتاره وفسقه وسكره . ونجد فى الأغانى (ج ٥ ص ١٦٩) قصة من قصص استهتاره ، كما نجد صورة من صور فسقه فى (ص ١٧٠) .

ويقول ابن قتيبة فى الشعر والشعراء (ص ٣٠٢ المكتبة التجارية): « وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان النحوى ؛ وكانوا يتعاشرون، ويتنادمون، وكانوا يرمون بالزندقة كلهم[2] ؛ وكان حماد بن الزبرقان عتب على حماد الراوية فى شىء فقال :

نعم الفتى لو كان يعرف قدرَه ويقيمُ وقت صلاته حمادُ
هدلت مشافره الدنانُ فأنفُه مثل القدوم يسنُّها الحداد
وابيضّ من شُرب المدامة وجهُه
فبياضُه يوم الحساب سواد »

على أن نسبة هذه الأبيات إلى حماد بن الزبرقان فى هجاء حماد الراوية يحوطها الشك ؛ فأبو الفرج (ج ٥ ص ١٧١) ينسبها وثلاثة أبيات أخرى بعدها إلى أبى الغول الطهوى فى هجاء حماد ، والبغدادى (ص ١٣٢) ينسبها — مغيّرة قليلا — إلى أبى الغول الطهوى أيضاً ، وابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٥ ط مصر) ينسب البيتين الأول والأخير منها إلى بشار فى هجاء حماد عجرد وكانا يتهاجيان ، وللمرتضى فى أماليه (ص ٩٢ ط صبيح) يذكر رواية تؤخذ منها أن أبا الغول النهشلى قال هذه الأبيات — مع اختلاف فى صدر البيت الثانى — وبيتاً رابعاً فى هجاء حماد عجرد .

ولما توفى حماد رثاه محمد بن كُناسة[1] بقوله :

أبعدتَ من يومك الفرارَ فما جاوزت حتى انتهى بك القدرُ
لو كان يُنجى من الردى حذرٌ نجّاك مما أصابك الحذر
يرحمك الله من أخٍ يا أبا القاسم ما فى صفاته كدر
فهكذا يفسد الزمان ويفنى العلم فيه ويدرس الأثر

وهذه الأبيات يذكرها ابن النديم (ص ٩٢) ، ويذكر ياقوت (ج ٤ ص ١٤٠ ط مرجليوث) وابن خلكان (ص ٢٤٢ ط باريس) الأبيات الثلاثة الأخيرة منها مغيّرة بعض التغيير.

(للبحث بقية) السيد يعقوب بكر

(١) عالم وشاعر كوفى ، جمع أشعار تيله أسد ، وامتدت حياته من سنة ١٢٣ هـ إلى سنة ٢٠٧ هـ .

(١) يرجع أرندنك فى هذا إلى الأغانى (ج ٢ ص ٩١) .

(٢) تجد هذا الشطر من الرواية فى ياقوت فى ترجمة حماد عجرد (ج ١٠ ص ٢٥٠ ط المأمون) ، وفى الأغانى (ج ٥ ص ١٦٦ و ج ١٣ ص ٧٣) .

حول مذهب الشيخية :

بيان حقيقة وإيضاح شبهة

للشيخ عبد الله بن على الموسوى

قرأت فى الرسالة المباركة عدد (٦٣٣) ما حرره الدكتور جواد على بعنوان (الفلسفة الإسلامية المتأخرة) فرأيته ، وفقه الله وسدده ، قد خالف الحقيقة فيما نسبه إلى الشيخية ورئيسها المرحوم الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائى ، فتعجبت غاية العجب وقلت يا سبحان الله ! إن مثل الدكتور جواد على المعروف بالتتبع والصدق والأمانة كيف يكتب خلاف الحقيقة ويسىء إلى التاريخ ويشوه سمعته حتى أنى ظننت أنه ، سلمه الله ، لم يطلع على كتب الشيخ أحمد بن زين الدين ولا على كتب واحد من تلاميذه وأتباعه وما كتبه قد استقاه من عيون غير صافية . وها إلى أبين ما جاء فيما كتبه صواباً وخطأ .

أما قوله : إن الشيخية هم المنسوبون إلى الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائى فهو حق ، لأن الشيخية هم الذين يقلدون الشيخ أحمد ويأخذون فروع دينهم عنه كما هى سيرة الشيعة الإثنى عشرية إلى يومنا هذا . وأما قوله : إن الشيخ أحمد تأثر بآراء الملاصدرا كثيراً فشرح بعض كتبه مثل كتاب العرشية والشاعر ، وهو عيال على الملاصدرا فهو مخالف للحقيقة ، لأن الملاصدرا يقول بوحدة الوجود كمحيى الدين بن عربى ، والشيخ أحمد عقيدته التوحيد الخالص ، وقد رد على الملاصدرا فى شرحه كتابيه : العرشية والمشاعر ، لا أيده ، والشرحان مطبوعان وبإمكان كل منصف طالب الحقيقة النظر فيهما ليعرف حقيقة الأمر ؛ كما أن الشيخ أحمد فى كتابه شرح الزيارة زيّف آراء محيى الدين وعقيدته فى وحدة الوجود ، تجد ذلك فى (صحيفة ٢٢) من كتاب شرح الزيارة طبع سليمان خاقان . فالقول بأنه عيال على الملاصدرا بعيد عن الإنصاف جداً .

قوله : وبالنظر إلى ما كان يظهره من غلو فى بعض الآراء نفر الناس منه فالتمس الشيخ أحمد حامياً له ومعيناً ، وكان ذلك الحامى هو الأمير محمد على بن فتح على شاه إلى آخر عبارته

(اعلم) أن الشيخ أحمد لاغلو فى آرائه ، وكانت آراؤه مستقاة من كتاب الله سبحانه وسنة نبيه وأحاديث آل البيت الإثنى عشر ، وتلك المصادر لا غلو فيها .

نعم إن الشيخ أحمد لما كانت له درجة رفيعة فى العلم وكان ورعاً تقياً زاهداً عابداً لا همة له سوى إرشاد الناس وصلاحهم صارت له لدى الملوك والأمراء منزلة لا بأس بها ؛ فألح السلطان فتح على شاه إقامته فى طهران لما زارها وألح عليه فامتنع الشيخ أحمد عليه امتناعاً شديداً ورجع إلى يزد بعد أن زار خراسان ، ثم بعد ذلك عزم السفر إلى زيارة أئمة العراق ، ولما وصل إلى أصفهان أوفد الأمير محمد على جماعة إلى أصفهان يستقبلونه وكان إذ ذاك فى كرمانشاه والياً ، ولما قارب الشيخ كرمانشاه خرج الأمير وحاشيته وجنده ورعاياه لاستقباله وقد طلب من الشيخ الإقامة فى كرمانشاه فوعده بالإقامة بعد رجوعه من العراق ، وبعد أن رجع أقام فى كرمانشاه يدرس العلوم الدينية ويوضح الشريعة المحمدية .

هذه قصة الأمير محمد على ميرزا ومن أراد الاطلاع عليها أو على غيرها فعليه بكتاب هداية الطالبين المطبوع فى إيران .

قوله : يروى عن الشيخية أن الإمام تجلى للسيد كاظم الرشتى فى ليلة من الليالى وكان عمره إذ ذاك إثنى عشر عاماً وأشار عليه بوجوب الذهاب إلى مدينة يزد والالتحاق بحاشية الشيخ أحمد ، ما أدرى من أين أخذ دكتورنا هذه الرواية وعلى من اعتمد فى نقلها ومتى كانت الشيخية تعتمد على أمثال هذه المزخرفات وإن كان ما يرويه الدكتور جواد على حقاً فليذكر الكتاب الذى فيه هذه الرواية .

قوله : ولما غادر الأحسائى إيران ثم ترك العتبات المقدسة فى العراق لأداء فريضة الحج توفى فى الحجاز ودفن فى المدينة فى جوار قبور الأئمة بالبقيع سنة ١٢٤٣ ، الصحيح أنه توفى سنة ١٢٤١ لا سنة ١٢٤٣ للهجرة .

قوله : وأصبح السيد كاظم الرشتى خليفة الأحسائى والنايب منابه . نعم إن الشيخية لما فقدوا الشيخ أحمد ورأوا السيد كاظم الرشتى عالماً فاضلا ورعاً تقياً صادقاً أميناً قلدوه وأخذوا الأحكام الفرعية عنه ، حتى أن الشيخ أحمد الأحسائى خلّف ولدين وهما :

الشيخ محمد تقي والشيخ علي وقد كانا عالمين فاضلين إلا أنهما رحمهما الله لما لم تكن درجتهما العلمية في نظر الشيخية كدرجة السيد كاظم الرشتي قلدوه وأعرضوا عن تقليدهما ، وكذلك لما توفي المرحوم السيد كاظم الرشتي خلف ولده المرحوم السيد أحمد وكان أيضاً عالماً فاضلا وله من المال ما لا بأس به ، إلا أن درجته العلمية لما لم تكن موازية لدرجة المرحوم الحاج محمد كريم خان قلدوا الحاج محمد كريم خان ، وذلك دليل تدينهم وعدم تأثرهم بالماديات وغيرها وذلك لا عيب عليهم فيه .

قوله : إلى أن توفي الرشتي بمرض أصابه ببغداد دون أن يتمكن من النص على تعيين شخص يكون خليفته من بعده وزعيم الشيخية الديني المطاع بالنص والتعيين .

يا سبحان الله ما أعظمها من فرية ما أدري من أين اقترف الدكتور هذه التهمة التي اتهم بها الشيخية ، ومتى كانت الشيخية تعتقد بأن زعيمها الديني لا بد وأن يكون منصوصاً عليه من سابقه ؛ وفي أي كتاب من كتبهم اعتقدوا ذلك ، ولذلك فليحسن الدكتور إلى التاريخ وليوقفنا عليه من كتب الشيخية أنفسهم لا من أقوال المفترين نكن لسعادته شاكرين .

نعم عقيدة الشيخية في التقليد هي عقيدة المجتهدين من الشيعة الإثني عشرية فكل من رأوه فقيهاً عالماً عاملا تقياً نقياً قلدوه وأخذوا أحكام دينهم عنه ، وذلك ما نص عليه الإمام جعفر من آل البيت بقوله : أما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه ، ولا أمنع أنهم يختارون تقليد الأعلم .

قوله : فانصرفت جماعة منهم إلى الميرزا علي محمد الشيرازي إلى أن قال والبابية عيال على الشيخية في آرائها وأفكارها المثالية ولا سيما في نظرتها إلى الإمام المهدي وعلاقة الإمامة بالإنسان ؛ أظن أن الدكتور لم يطلع على كتب البابية وآرائها كما أنه لم يطلع على كتب الشيخية وعقائدها ، ولو اطلع على الكتابين والعقيدتين لما افترى على الشيخية ولما ألحق البابية بالشيخية ، فإن ميرزا علي محمد الشيرازي ادعى البابية للامام مرة ، وادعى أنه المهدي الذي يخرج بالسيف تارة ، ومرة ادعى أنه يوحي إليه وقد أنزل عليه بزعمه كتاب كالقرآن نعوذ بالله ، وتارة ادعى الألوهية ، ولولا الإطالة لسطرت من مزخرفاته التي أنزلت عليه في قرآنه بزعمه الذي سماه الذكر والبيان ما يهتدي به الطالبون ، وأن ميرزا علي محمد أنكر شريعة سيد المرسلين وأسقط عن أتباعه الصلاة والصيام والحج والزكاة كما في قرآنه المزخرف وغيره من رسائله ، وأول من زيف مزخرفاته ورد عليه وكفره بها هو زعيم الشيخية وعالمها المرحوم الحاج محمد كريم خان ؛ وقد كتب في ذلك رسائل عربية وفارسية ، وقد كان الميرزا علي محمد في قرآنه المزخرف يحرم على أتباعه النظر في كتب الشيخ أحمد والسيد كاظم وينهاهم عن مطالعتها ، منها قوله في أول سورة من مزخرفه : « من اليوم الذي قرئ عليكم كتاب ربكم كتاب البيان حرمنا عليكم يا حروف كلمة البيان ومظاهر النقطة السارية في هويات الظهور إلى تفسير الزيارة وشرح الخطبة وكل ما كتب الأحمد بيمينه والكاظم بيمناه كما حرمنا على الذين من قبلكم النظر إلى عورات أمهاتكم وأن هذا من فضلنا عليكم وعلى الناس لعلهم يحذرون »

فهل يا ترى من الإنصاف لمن يدعي الإنصاف أن يتهم الشيخية بفكرة البابية ويجعل البابية عيالا عليهم ، وما أدري ما يجيب إذا سأله الله سبحانه يوم فصل القضاء عن ذلك فليستعد للجواب . وأما قوله : ولا سيما في نظرتها إلى الإمام المهدي ، فاعلم أن الشيخية لا عقيدة لهم في المهدي كعقيدة البابية ، بل عقيدتهم في الأئمة الإثني عشر عقيدة الشيعة الإثني عشر وهم : علي بن أبي طالب وولداه الحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق وموسى بن جعفر الكاظم وعلي بن موسى الرضا ومحمد بن علي الجواد وعلي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري ومحمد بن الحسن المهدي فلا يغيرون ولا يبدلون ؛ فالشيخية إن اعتقدوا أنهم زاد عليهم فيكونون ثلاثة عشر أو ينقص منهم فيكونون أحد عشر ، وكذلك إن اعتقدوا بأن المهدي ليس هو محمد بن الحسن وإنما هو نوعي فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وإن افترى عليهم أحد بذلك فلعن الله من افترى ، وقد جاءت الرواية عن الرسول (ص) من طريق الشيعة وطريق إخواننا السنية بعددهم وأسمائهم وأسماء آبائهم في مائة وخمسة وستين حديثاً وقد رواها التوبلي في كتابه (غاية المرام) ، وإن كان ما يقوله

الدكتور حقاً فليوقفنا عليه من كتب الشيخية لا من كتب غيرهم فإن المرء يؤخذ بمنطقه .

قوله : ومن أقوال الإحسائي في الحشر والمعاد إن هذا البدن المحسوس المركب من العناصر الأربعة يفنى ويزول ولا يعود . الشيخية يعتقدون بالمعاد الجسماني وأن الجسم الذي عمل في الدنيا خيراً أو شراً هو الذي يعود في الآخرة ؛ إلا أن المسألة مسألة علمية وقد شرحها مشايخنا ولا سيما المرحوم الحاج زين العابدين خان الكرماني في كتابه إيضاح الاشتباه وهو موجود ومطبوع في العراق وإيران .

قوله : وقد أنكر معراج النبي بالبدن العنصري البشري . الشيخية يعتقدون بمعراج النبي (ص) بروحه وجسمه كما أوضحه صاحب إيضاح الاشتباه الذي أشرت إليه .

قوله : وينسب إليه الغلو في الأئمة حتى أنه أشركهم مع الله في الخلق وفي القدرة وفي مسائل أخرى هي من صفات الألوهية والربوبية ، هذه فرية أخرى .

قال الشيخ أحمد في كتابه حياة النفس الذي صنفه في العقائد صحيفة (٤) اعلم أنه واحد في أربعة مراتب لا شريك له فيها (الأولى) لا شريك له في ذاته . قال الله سبحانه وتعالى لا تتخذوا آلهين اثنين إنما هو إله واحد (والثانية) لا شريك له في صفاته قال الله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . (والثالثة) لا شريك له في صنعه ، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه (والرابعة) لا شريك له في عبادته فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . هذا مذهبه وهذه عقيدته ولا يضره كفر من كفره إن صح ما قاله الدكتور فإن من كفر مسلماً فقد كفر . (قوله) أما المذهب الشيخي فلم يظهر في وسطه زعيم قوي بعد وفاة خليفة الإحسائي يستطيع الاستمرار على دعاية ذلك المذهب على الرغم من الجهود التي بذلها بعض علمائهم من أمثال الحاج محمد خليل خان الكرماني والملا محمد الماقاني .

بينت فيما سبق أن الشيخية لا مذهب لهم غير مذهب الشيعة الأثني عشرية ، ومن نسب لهم غير ذلك فقد بهتهم وافترى عليهم وظلمهم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وأما علماؤها فقد ملأوا الأصقاع والبقاع بتصانيفهم ومؤلفاتهم في أغلب العلوم والفنون حتى أنها من زمان الشيخ أحمد الأحسائي إلى الآن تزيد على ألف مصنف ومؤلف . (قوله) ومع ذلك فلا زالت هنالك جماعة صغيرة مشتتة بين العراق وإيران وسواحل الخليج تنتمي إلى مذهب الأحسائي ولكنها لا تتظاهر بذلك ولا تجهر به

هذه النبذة الأخيرة التي سجلها الدكتور يقصد بها الازراء على الشيخية والطعن عليهم في أنهم جماعة صغيرة فأراد أن يطعن عليهم بقلتهم مع أن المناط هو الحق فلا تجدي الكثرة نفعاً إن كان أصحابها مبطلين ، كما أن القلة ليست بضائرة إن كان معتنقوها محقين . وقد مدح الله سبحانه القلة في مواضع كثيرة من كتابه كقوله : (قليل من عبادي الشكور) وكقوله : (وما آمن معه إلا قليل).

(وأما قوله) سلمه الله : لا تتظاهر بذلك ولا تجهر به بينت مكرراً أن دين الشيخية دين المسلمين الذي أنزله الله سبحانه في كتابه المبين وبينه خاتم الأنبياء والمرسلين والبلاد والحمد لله بلاد مسلمة لا بلاد كافرة ، والعدالة سائدة فيها ، فلماذا لا تجهر به فتلك مساجد الشيخية والحمد لله في جميع أنحاء العراق وفي جميع بلاد إيران وفي الإحساء والبحرين والكويت وغيرها من بلاد المسلمين معمورة بالأذان والعبادات ؛ والشيخية معروفة بالمحافظة على الصلوات وأداء الفرائض في أوقاتها والصدق والأمانة وإن خفي ذلك على الدكتور فلا يخفى على غيره من المنصفين . وأنا أعلم أن ما كتبته الآن لا يجدي نفعاً لأن المسألة لم تكن مبنية على الإنصاف :

وقد حكي أن رجلا دخل على الإمام جعفر الصادق فقال له الصادق من أنت قال : أنا رجل أحضر عند العلماء . قال له : أي شيء عندك من الأخبار ؟ قال : أخبرني سفيان الثوري أن جعفر ابن محمد الصادق يقول : إن الله قاعد على العرش فيفضل منه من كل جانب من العرش أربعة أصابع . فقال له الإمام : أخبرني بغير هذا مما عندك فذكر له من هذا القبيل أموراً كثيرة وكلها ينسبها إلى

سجون بغداد
زمن العباسيين
للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ٤ —

وكان فى نورمبرغ سجن يتناقل الناس أشد الأخبار هولا عما كان المسجونون يسامون فيه من البلاء ، وكان يعرف بالسجن الأحمر . وكانوا يقلعون أظافير السجناء ، ويفقأون عيونهم ، ويضغطون على عظامهم بآلات حديدية فتسحق وتهرس . أو يدفعونهم لينأموا فى أسرة ذات مسامير محماة ، تنخزهم وخزاً مؤلماً فتسيل دماؤهم . وكان فى السجن نفسه كساء حديدى يُدخل فيه المسجون فيطبق عليه . وكان له من داخله مسامير حادة تنفذ فى الجسم ، فيقاسى الرجل أنواع الألم حتى يموت .

وكان فى مدينة لاهاى سجن يسمى « جيفا نجن بورث » كان المسجونون فيه يُصابون بالجنون قبل أن يموتوا لشدة ما كانوا يعانون من العذاب كالكىّ بالحديد وقطع الأعناق بحز الرؤوس حزاً بطيئاً.

وفى مدينة هاليفكس كانوا يأتون بالمسجون وهو موثق اليدين والقدمين فتوضع عنقه تحت آلة قاطعة مدلاة مربوطة إلى السقف بحبل ، إذا انقطع سقطت الآلة الحادة على عنق الرجل فات[1] .

وفى سجن قة سان ميشيل فى فرنسا كان السجناء يُدفعون إلى كهوف فى بطن الأرض فيها الأفاعى وضروب الحشرات وقد ملئت بالماء الراكد القذر فيموت المسجون موتاً بطيئاً ؛ وربما ضُرب أو عذب حتى يموت[2] .

اللهو

على أننا نرى من تمام البحث ، وقد أوردنا طَرَفاً من ألوان التعذيب أن نسوق طَرَفاً من اللهو الذى كان يتمتع به بعض المسجونين فى بعض السجون . حدّث أبو على بن مقلة قال « من ظريف ما اتفق لى فى نكبتى التى أدتنى من الوزارة ، أنى أصبحت وأنا محبوس مقيّد فى حجرة من دار ياقوت أمير فارس . وقد لحقنى من الأياس من الفرج وضيق الصدر ما أقنطنى وكاد يغلب على عقلى . وكنت أنا وفلان محبوسين مقيدين فى بيت واحد ، إلا أنا على سبيل ترفيه وإكرام . فدخل علينا كاتب لياقوت كان كثيراً ما يجيئنا برسالته ، فقال الأمير يقرأ عليكما السلام ، ويتعرّف أخباركما ويعرف عليكما قضاء أى حاجة لكما . فقلت : تقرأ على الأمير السلام وتقول له ضاق والله صدرى ، واشتهيت أن أشرب على غناء طيب . (قال) والمحبوس معى يخاصمنى ويقول : يا هنا ، والله ما فى قلوبنا فضل لهذا . ثم مضى وعاد يقول : الأمير يقول حباً وكرامة لك ، أى وقت شئت ؟ قلت : الساعة ، فلم يمض إلا ساعة حتى جاءوا بالطعام والمشام والفاكهة والنبيذ . وصفف المجلس ، فجلست والمحبوس معى مقيّداً ، وقلت له تعال حتى نشرب ونتفاءل بأول صوت يغنى به لنا فى هذه الساعة : وجاءت المغنية ، وغنتنا غناء طيباً ، فقطعنا يومنا بين لهو وشراب وغناء ... »[3] .

(١) انظر مقالة عن السجون فى العصور الوسطى فى الهلال ج ٩ ، لسنة ٣٩ ، آب سنة ٩٣١ ص ١٤٦٨ — ١٤٧٢ .

(٢) انظر كتاب : Funk Brentano: Les Prisons d'Autrefois وخصوصاً وصف سجن châtelet حيث يوضع السجناء بين السراطين والجرذان ، والروائح الكريهة والحشرات : ص ٩١ وانظر مغنة أقفاص الحديد ص ٢٦ ، والتعذيب ٣٠ و ٣١ .

(٣) الفرج بعد الشدة ١ — ٤٨

الإمام جعفر فقال له الإمام جعفر لما سمع منه كثيرا من الأكاذيب عليه يا هذا هل تعرف جعفراً إذا رأيته قال لا. فقال الإمام جعفر إذا أخبرك جعفر وقال لك إنى ما قلت كذا وأنا برىء من هذه الأكاذيب ما كنت تقول فى حق جعفر بن محمد ؟ قال أنكر عليه ولا أقبل منه وأقول له إن الذى أخبرنى أعدل منك » قضيتنا مثل هذه القضية وليس لنا إلا أن نفوض أمرنا إلى الله سبحانه ونتوكل عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

(البصرة) عبد الله على الموسوى

وحدّث أحمد بن المدبر أنه « لما أسر محمد بن عبد الملك يحيى ، أدخلت محبساً فيه أحمد بن إسرائيل وسليمان بن وهب . فجعلت فى بيت ثالث . وكنا نتحدث ونأكل جميعاً وربما أدخل إلينا النبيذ فنشرب ونلهو »[1] .

مدة السجن

ولم يكن للسجن مدة خاصة ، ولم يكن لكل جرم عقوبة ذات أجل معروف . فقد حبس إسحق بن خلف القاتل حتى مات[2] . وهذا ما يشبه السجن مدى الحياة فى أيامنا . وسجن يعقوب بن داوود خمسة عشر عاماً[3] . وحبس رجل فى كساء بدرهمين سنتين[4] ، وسجن أبو نواس ثلاثة أشهر[5] ، وأبو دلامة ليلة واحدة[6] ، وحبس الرشيدُ زلزلاً المغنى لوجد عليه عشر سنين[7] ، وسُجن القاهر إحدى عشرة سنة[8] ، فى حين سجن المتقى فى جزيرة بمقابلة السندية خمساً وعشرين سنة[9] . وهذا ما يشبه السجن مع الإبعاد فى هذه الأيام .

فأنت ترى أن ليس للسجن أجل محدود وإنما كان الخروج منه منحصراً فى سبل خمسة سنذكرها فيما يلى .

الخروج من السجن

أما هذه السبل فهى : (ا) الفرار ، (ب) كسر السجن ، (ج) موت الخليفة ، (د) العفو ، (ه) حيلة يُحتال بها .

ا — الفرار :

أما الفرار فحوادثه كثيرة نسوق إليك منها مثالا . حدّث محمد بن القاسم وكان المتوكل قد قبض عليه وسجنه فى سجن منفرد قال : « كنت أدبر أمرى فى التخلص منذ حبست . وكان فى البيت الذى حبست فيه خلاء إلى الغرفة التى فوقه وخلاء فى الغرفة إلى سطحها . وكنت قد أدخلتُ معى منذ حبست لبداً . فكان وطائى وفراشى . وكنت أرى « بفرش » وهى قرية من قرى خراسان حبالاً تُعمل فيها من لبود ، كما يفعل بالسيور ، فتجىء أحكم شىء . فسوّلت لى نفسى أن أعمل من اللبد التى تحتى حبلاً . وكان على باب البيت قوم وُكلوا بى يحفظوننى لا يدخل علىّ منهم أحد ؛ وإنما يكلموننى من خلف الباب ، ويناولوننى من تحته ما أتقوّته ، فقلت لهم إن أظفارى قد طالت جداً ، وقد أصبحتُ إلى مقراض . فجاءنى رجل بمقراض وقلتُ لهم إن فى هذا البيت فيراناً يؤذوننى ويقذروننى إذا قربوا منى ، فاقطعوا لى جريدة من النخل تكون عندى أطردهم بها ، فقطعوا لى جريدة من بعض نخل البستان ، ورموا بها إلىّ . فأخذتُ أضربُ بها فى البيت وأسمعهم صوتها أياماً . ثم قشرتُ الخوص عنها ، وقطعتها على مقدار ما علمتُ أنها تعترض فى ذلك الخلاء إذا رميتُ بها . فضممتُ كل ما قطعته منها بعضه إلى بعض ، وقطعت اللبد ، وضفرت منه حبلاً على ما كنت أرى يُعمل بفرش ثم شددتُ ما قطعته من الجريدة فى رأس الحبل ، ثم رميت به فى الكوّة ، وعالجته مراراً حتى اعترض فيها . ثم اعتمدت عليها ، وتسلقتُ إلى الغرفة ، ومن الغرفة إلى سطحها ، وفعلت ذلك أياماً ، وشددت القيد مع ساقىّ . فلما كان ليلة العيد ، وقد شغل الناس وانصرف من كان على الباب . صعدتُ بين المغرب والعشاء إلى الغرفة ، ومن الغرفة إلى سطحها ، ثم تدليت بالحبل إلى بستان مجاور وفررت ... »[1] .

صلاح الدين المنجد

(١) الفرج بعد الشدة ج ١ — ١٢٠ ، وانظر بقية الخبر هناك .

(١) الفرج بعد الشدة ١ — ١٤٩ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ١٢٨ .
(٣) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٤١ .
(٤) تاريخ بغداد لطيفور ص ٢٥ .
(٥) الملح والنوادر للحصرى ص ١٣٤
(٦) ثمار القلوب للثعالبى ص ٢٠ .
(٧) الأغانى ج ٥ ص ٢٢ .
(٨) المنتظم ج ٦ ص ٢٦٥ .
(٩) المنتظم ج ٦ ص ٢٦٥ .

في الريف

غصون الصفصاف

للأستاذ إدوار حنا سعد

هدالك فاتن الورقات غض ... يرف نضارة ويميس لينا(١)
تدلى للمياه كأن ثغراً ... يقبل أويهم بأن يبينا(٢)
فقولي ، إن بي شجناً شبيهاً ... بأي هوى قديم تهمسينا
وما ألقى إليك الماء سمعاً ... يبادلك الحنان ولا جفونا
تتابع غير مكترث وولى ... وجفنك مظهر ألماً دفينا
إذا وهب الندى أجراه دمعاً ... شجياً في تسلسله سخينا
فإن هب النسيم معطرات ... غلائله يمسن وزدهينا
ومسك لهفة وحنا غراماً ... وأن بكل ناحية أنينا
ورقرق في غدائرك النشاوى ... مع الهمسات عطر الياسمينا
رعشت للمسه ولويت عطفاً ... وعدت إلى نهيرك تهمسينا
فواها للحياة تعذبينا ... بحب خائب وتعذبينا
وما أشقى المحبين الحيارى ... إذا نكبوا بحب المعرضينا

* * *

وقفت إلى جوارك نضو هم ... غريب الدار أبكي النائبينا
ترفرف ثم أطيار حيارى ... ملأن الجو ترجيعاً حزينا
تطالعني الزوارق سابحات ... قبيل الأفق تملأه فتونا
يرف بكل سابحة شراع ... رقيق الخفق يستهوي العيونا
كأن السابحات إذا تلاقت ... حمائم قد هبطن ليستقينا
فإن لعبت بها النسمات حيناً ... وشتت شملها التيار حينا
تمثل لي شيوخ (في مسوح ... طوال الردن بيض) راكعينا
وقد رفعوا أكفهم دعاء ... وقد غضوا النواظر خاشعينا

* * *

أنت الماء ما أوفى بنات ... بصفته ، وما أوفى البنينا
علوت وما شمخت عليه كبرا ... فعدت إليه تقضين الديونا
حنوت على وسادته مسجى ... وحيداً لا مهدهد أو معينا
لمست جبينه الساجي فأصغى ... وأشرق وجنة ورنا عيونا
فهل يرعى حقوق أب بنات ... وينساهن بعض العاقلينا
إذا بلغوا رجولتهم وشبوا ... تناسوا عن حقوق الوالدينا

(١) الهدال : — ما تهدل من الأغصان ، يقال أردية ذوات هدال .

(٢) تدلى : — أي دنا قليلا قليلا .

غرام . . .

(أحبك حين : حب الهوى) ... وحباً لأنك لم تخضعين
تزيدين سحراً بطول الدلال ... كماء تمايا على الظامئين
غزوت القلوب فما قاومت ... ولكن قلبك حصن حصين
أهاجمه في صيال ملح ... وأحميه من كل واش ظنين
وإني القنيص الذي تعرفين ... وإني المحب الذي تجهلين(١)
عفيف الحلال وإن شئتني ... عنيف النضال كنسر طمين
جمال الرجولة أن تستبد ... وسحر الأنوثة أن تستكين
وما هو ظن ولكنه ... يقين الجدود وإرث القرون

* * *

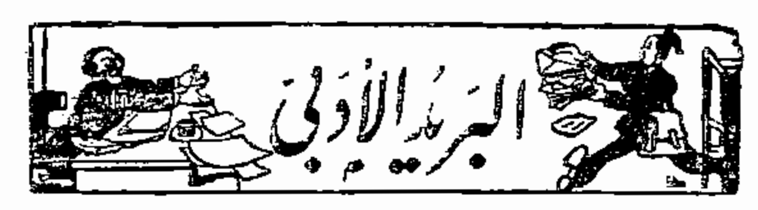
تجاريب آدم في خاطري ... فيا بنت حواء من تخدعين ؟
لبست الدلال ولاقيتني ... لكي تستزيدي غرام الحنين
فتمشي إلى الحب مأسورة ... يثور هواك ويعنو الجبين
وما أعذب القنص بعد الصيال ... وأحلى اللقا بعد صبر السنين

* * *

غرامي طوفان شوق عنيف ... فلا تسخري فتطغى الظنون
طحت بابن نوح وأودت به ... شكوك تمشت بنور اليقين
وقال سآوي إلى قمة ... فضل وكان من المغرقين
فإن ألك داء فإني الدواء ... وإن ألك ماء فإني السفين
وإلا فما لك من عاصم ... ولا مهرب من سمائي المتون

(الاسكندرية) إدوار حنا سعد

(١) القنيص هنا بمعنى الصائد .



بين ابن الزبير وتوفيق الحكيم :

قرأت فى كتاب « محمد » للأستاذ توفيق الحكيم فى صفحة ٢٥١ قوله :

« يحمى وطيس القتال ويثخن المسلمون أعداءهم قتلا وأسراً وسلباً . ويستلب عبد الله بن الزبير أدراع أحد القتلى ويأسر أمية ابن خلف وابنه » .

عبد الله بن الزبير (رافعاً سيفه) .

هنا أنت يا أمية بن خلف ! . . . الخ .

فعجبت وحق لى أن أعجب فإنى لأعلم أن عبد الله بن الزبير كان ابن سنة واحدة يوم غزوة بدر ، فكيف استطاع الأستاذ أن يجعل من ابن السنة مارداً يرفع السيف ، ويستلب الأدراع ، ويأسر الرجال ؟

إن الذى أسر أمية بن خلف هو عبد الرحمن بن عوف ، وكان صديقاً حيا له فى مكة قبل الإسلام ، وما شهدت مكة عبد الله بن الزبير بعد .

فأخذت أحقق هذه الواقعة ، فلم أجد مؤرخا واحداً ، ولا مرجعاً واحداً قد ذكر ما ذكره الأستاذ فأسفت فقد كنت أود أن أجد للأستاذ مخرجا ، وهاك ما أورده الطبرى فى حادثة أسر أمية بن خلف :

« ... عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف قال : كان أمية بن خلف لى صديقاً بمكة ، وكان اسمى عبد عمرو فسميت حين أسلمت عبد الرحمن ونحن بمكة ، فكان يلقانى ونحن بمكة فيقول : يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سمّاكه أبوك ، فأقول : نعم . فيقول فإنى لا أعرف الرحمن ، فاجعل بينى وبينك شيئاً أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف . قال فكان إذا دعانى يا عبد عمرو لم أجبه فقلت اجعل بينى وبينك يا أبا على ما شئت قال : فأنت عبد الإله . قلت : نعم فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإله فأجيبه ، فأتحدث معه حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه على بن أمية آخذاً بيده ومعى أدراع قد استلبتها ، فأنا أحملها فلما رآنى قال : يا عبد عمرو ، فلم أجب فقال : يا عبد الإله ، قلت : نعم ، قال : هل لك فىّ فأنا خير لك من هذه الأدرع التى معك ، قال قلت : نعم هلم إذا ، قال : فطرحت الأدرع من يدى وأخذت بيده وبد ابنه على وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أمالكم حاجة فى اللبن . قال ثم خرجت أمشى بهما » .

من هذا يتضح أن عبد الله بن الزبير قد ولد فى السنة الأولى وأن غزوة بدر قد وقعت فى السنة الثانية ، وأن عبد الرحمن بن عوف هو الذى أسر أمية بن خلف . لذلك لزم التنبيه حتى إذا ما فكر الأستاذ فى إعادة طبع كتابه القيم ، عمل على إعادة ابن الزبير إلى مهده ، واسترد منه سيفه الذى رفعه قبل أوانه .

عبد الحميد جودة السحار

خطأ تاريخى فى كتاب (على ضفاف دجلة والفرات) :

قرأت فى كتاب (على ضفاف دجلة والفرات) لمؤلفه الأستاذ طاهر الطناحى قوله :

« وكانت الشيعة قد بايعت محمد بن على بن الحسين المعروف بابن الحنفية على طلب الخلافة بعد تنازل الحسن بن على عنها لمعاوية ابن أبى سفيان سنة ٤١ هجرية »(١) .

فوجدت فيه خطأين تاريخيين هما :

(١) إن محمداً المعروف بابن الحنفية لم يكن ابن على بن الحسين . بل هو ابن على بن أبى طالب « ع » نفسا وأخو الحسين بن على بن أبى طالب لأبيه .

(٢) لم تكن الشيعة قد بايعته ألبتة فى زمن الحسن بن على بعد تنازله عن الخلافة بل بايعت أخاه الحسين بعد وفاته وإذا نزلنا على قول المؤلف فعلى بن الحسين لم نمهد له ولداً فى ذلك الوقت بل لم يكن متزوجاً وإنما كان عمره لا يتجاوز الثلاث سنوات .

(الكويت) عبد الصمد تركى الجعفرى

(١) صفحة ١٥ .

توقيع عبد الله بن طاهر

في العدد ٦٤٠ من مجلة « الرسالة » الغراء لخاتمة المحققين ، وأديب العربية — غير مدافع — في فلسطين ، وأحد أفذاذها في العالم العربي الأستاذ الجليل محمد إسعاف النشاشيبي أمد الله في عمره ونفعنا به ، ما يلي :

قال الزمخشري في شرح مقاماته : « ومن توقيعات عبد الله ابن طاهر فيما سمعته من أبي غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك ، فاخش فاحش فعلك ، فلعلك بهذا تهدأ .

أقول : يغلب على الظن أن هذه (الرسالة) من وضع علماء البديع ، فهم يقدمونها مثلا للجناس المصحف الذي تماثل ركناه وضعاً واختلفا نقطاً بحيث لو زال إعجام أحدهما لم يتميز من الآخر ، وفي اختلاف نسبتها إلى واضعها دليل على هذا ، والراجح أن واضعها ذهب في وضعها إلى ذكر ستة جناسات مصحفات لا أربعة ، وكتابتها على هذا تكون على الوجه التالي

(غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك ، فعلك بهذا تهدا) مستبدلا بكلمة (فلعلك) : (فعلك) وبكلمة (تهدأ) كلة (تهدا) دون همز ، تحقيقاً لما ذهب إليه واضعها من الجناس المصحف

وفي كلة الأستاذ الجليل نفسها تحقيق في (حركة) (الشغب) قال : « والفتح لغة وليس بخطأ كما قال الحريري في (الدرة) ، وليس هو من كلام العامة كما ذكر ابن الأثير في (النهاية) » .

أقول : شيخ أدباء القدس اليوم من أعظم أساطين اللغة والأدب تعلقاً بشيخ المعرة وفيلسوفها في الأمس ، وهو من أكثرهم ارتياحاً لآرائه وأبحاثه وتحقيقاته ، وأنا — على هذا — مورد ما ذكره فيلسوف المعرة في (الشغب) هنا

جاء في كتاب « عبث الوليد » — وهو ما علقه أبو العلاء على ديوان الشاعر المطبوع أبي عبادة البحتري — في أثناء تعليقه على قصيدته التي مدح بها أبا عيسى بن صاعد ، والتي مطلعها :

كيف به والزمان يهرب به ماضي شباب أغذذت في طلبه

والتي منها :

إحاطة بالصواب تومن من لجاجه في الجدال أو شغبه

قال رحمه الله :

« الاختيار عند أصحاب النقل الشغب بسكون الغين كما قال : لقمقمة المفتاح في رائد الضـحى

أحب إليكم من طعان ذوي الشغب

وقد جاء شغب في بعض الكلام ، وقد شهر القول في أن الثلاثي ، إذا كان أوسطه حرفاً من حروف الحلق الستة أجاز الكوفيون فيه التحريك والإسكان »

قلت : وابن جني يرى في خصائصه هذا ولا يستثني.

ولما كان (الشغب) من خصائص (الشعب) وتصحيفه حار في أمره العلماء وأرباب الفكر ، فرأوا أن (التسكين) ألزم من (الحركة) في هذا المعنى ، حتى ولو كان فيه استثقال في اللفظ والمبنى — والفتحة أخف الحركات — ولم يحركه إلا أهل الكوفة وليس بينهم في الشعب ملتَّب ، وجلّهم على السياسة والدولة شغَب قبل أن يكون على اللغة والنحو شغّابا ، فقد خذلوا علياً (كرم الله وجهه) وغرروا بأبنائه من بعده قبل أن يودوا بواضع (الكتاب) سيبويه

(فلسطين) راضي قاهرة

أستاذ الأدب العربي في مدرسة غزة الثانوية



« عبث لطيف »

سرحية فى فصل واحد

للقصصى نويل كوارد

للأستاذ أحمد فتحى عبد التواب

« ترفع الستار والمسرح مظلم . وتسمع أصوات ، ثم يدخل شاب تتبعه فتاة يضيء الشاب الأنوار فيظهر كرسي ومائدة وأريكة ومكتبة بها كتب ودولاب وغير ذلك ... ثم بقايا نار متأججة فى المدفأة » .

هو : ألا تتفضلين بالجلوس ؟

هى : نعم أشكرك . (تدنو متباطئة ثم تجلس على الأريكة وتخلع معطفها)

— (بعد لحظة صمت) : حقا إن الجو قارس للغاية .

— (بجهد) : أليس كذلك ؟ إن الإنسان يحس الخريف فى الهواء .

— نعم ، هكذا يشعر الإنسان . (لحظة انتظار أخرى)

— (بازدراء) : إننى أحب لندن فى الخريف .

— (بنفس الازدراء) : وأنا أيضا .

— إنها تكون غاية فى الكآبة .

— نعم ، نعم ، غاية فى الكآبة ـ هكذا تكون .

— كم الساعة الآن .

— (ناظرا إلى ساعته) : الثانية عشرة ونصف .

— الوقت متأخر ، أليس كذلك ؟

— متأخر جدا .

— ما أجمل هذه الغرفة ! !

— نعم ، أعنى ، هل ترينها كذلك ؟

— أوه ، نعم ، إنها جميلة وفى غاية الأناقة والترتيب .

— إن ذلك ليسرنى .

— (تقف) : وكتب أيضا ! ! أنقرأ كثيراً ؟

— بين الفينة والفينة ، أعنى ـ أحيانا .

— (تقترب من المكتبة) كتب جميلة ، ولا سيما ذلك الكتاب

— أى كتاب تعنينه ؟

— ذاك : ستريندبرج (Strindberg) .

— أوه ، ستريندبرج ، إنه خامد العزيمة متشائم ، أليس كذلك ؟

— نعم ، ولكن الحياة ـ الحياة الحقيقية دائما ـ ليست عاطفة مزيفة و ... و ... ونفاق .

— أوه ، لا لا . وفى الحقيقة إننى لم أقرأ له كثيرا . وهذا المسكن ليس لى فى الواقع وإنما استعرته فقط .

— هذا ما يبدو لى (تجلس ثانية) .

— لم يمض على إقامتى فى هذا المسكن طويل وقت .

— إنه فى وسط المدينة .

— نعم ، هو كذلك (بعد سكوت قليل) ألا تشربين شيئا ؟

— (بسرعة) : أوه ، لا ، أشكرك (تصلح من شأنها) إنه ... عسى ... (بتصميم) نعم ، أشرب .

— أخشى ألا يوجد غير الوسكى والصودا . (يتوجه نحو المائدة)

— (بلا تكلف) : وسكى وصودا ! !

— نعم ، ألا توافقين ؟

— نعم ، بكل تأكيد .

— متى شربتيه من قبل ؟

— (بسرعة) : لم أشربه كثيرا ... قليلا جدا ... الآن ... فى ذلك الكفاية .

— (مقدما إليها الكأس عديم اللون تقريبا) : إنه ضعيف للغاية

— (مغمضة عينيها ورادة له الكأس) إذن . زده قليلا من الوسكى .

— (مأخوذاً بحدتها المفاجئة) أوه ، حسن جدا ، لك ما تريدين

— (تتناول الكأس) شكراً لك ... (ترتشف المشروب) أوه ، يا عزيزى ! !

— ما هذا ؟

— لا شيء .

(ولا يلحظ رجفة الامتعاض حينما تشرب الوسكي)

— (يجلس بجوارها على الأريكة) : لقد كان مضحكا أن أقابلك هكذا .

— (بضحكة عصبية) : نعم ، أليس كذلك ؟

— أقسم إنني رأيتك قبل ذلك فى مكان ما .
— لست موافقة لك على هذا .
— من الحماقة أن تفعلى . اسمعى ، إننى ...
— (قافزة صوب الباب) ماذا ؟
— أوه ، لاشىء .
— (بعد صمت قصير) : يسرنى ألا تنسى ذلك .
— نعم .
— (خافضة بصرها) أوه ، لاشىء .
— (بغتة) : لا فائدة ، لا يمكنني ...
— لا يمكنك ما ذا ؟
— لا يمكننى أن أذهب معك أكثر من هـذا (بحدة) اسمعى ، لا يهمنى ما تظنينه بى ، لاشك أنك تضحكين منى طول الوقت ... ولـكن هذا لايعنينى ... أعنى ... اسمعى ... ألا ترحلين !
— (ويدها فوق جبهتها) أتعنى ؟ ... أوه ، ياعزيزى (تسقط بين ذراعيه مغشيا عليها) .
— يا إلهى (يروحها) إنه مخيف ... مخيف ! ! تنبهى ، بحق السماء ... أوه ، إنه مرعب ! (يسندها بوسادة) .
— (تفتح عينيها) أوه ، ماذا صنعت ؟
— أغمى عليك .
— (تنفجر باكية) : أوه مخيف ... مرعب ... !
(تستند على حافة الأريكة وتدفن رأسها بين ذراعيها) .
— أريد أن أقول ، لم كل هذا ؟ ما قصدت أن أكون نذلا ... أقولها مخلصا ...
— (متنهد) : بالعار ... بالعار ...
— اشربى هنا (يقدم لها كأسها التى لم تتنولها بعد)
— (دافعة الكأس بعيداً) : خذها بعيدا ، إنها تتعبنى .
— حسن جدا ، أريد أن أقول — بكل أسف ... أرجوك أن تكفى عن الصراخ .
— اتركنى وحيدة ... دقيقة واحدة .
وبعدها أكون على ما يرام . (تجلس)
— إننى وحش .
— لست كذلك ... شكراً لله (تقف) يجب أن أرحل حالا .
— أين تسكنين ؟ — فى كنسنجتن .
— سأوصلك حتى المنزل .
— أوه ، لا ، أرجوك لا ... ليس من الضرورى ...

— سأحضر لك سيارة أجرة ، إذن .
— حسن ... أشكرك .
— انتظرى هنا (يذهب صوب الباب)
— قف .
— (بفزع) : ماذا حدث ؟
— من فضلك تعال واجلس برهة ... أريد أن أقول لك شيئا .
— ولـكن ...
— أرجوك ... سأفعل حقا ... وبقولى الصدق سأخفف من شعورك بقسوتك ...
— يهمنى ألا أراك تعسة .
— (بحدة) تعسة ! ! إننى يائسة .. بالعار الأليم ... ألا أملك ذخيرة من الكلمات أعبر بها عن ازدرائى الكلى من نفسى .
— لم أفهم ! !
— أنا ، لست كما ظننت أن أكون بتاتا .
— (ميكانيكيا) : لقد تغير ظنى بعد الدقائق القليلة الأولى .
— ولهذا طلبت منى الخروج ؟
— لا ، ليس هذا بالضبط . أعنى ...
— أوه ، أشكرك كثيرا ... إنك عزيز ... إنه من حسن حظى ... إننى ...
— أقول ... من فضلك ...
— (مستجمعة قواها) . حسن جدا ... سوف لا أصرخ مرة أخرى ... يجب أن تعتقد أننى حمقاء ... إننى ... أسوأ من هذا بكثير . اصغ إلى ، إننى ، بالضبط ، فتاة عادية ... أسكن فى رتلاندجيت مع عمتى ، أذهب إلى الملاهى وأراقص وأتريض فى الحدائق وأساعد فى جمع الإحسان للمعوزين ...
— ولـكننى ...
— لا تؤخذ هكذا ... فما يزيد الأمر صعوبة أن أخبرك بكل شىء ...
إن مشكلة المرأة فى العصر الحديث ، وحياتى المقفرة الكئيبة التى أحياها — كحياة المرأة على العموم — دفعانى إلى قراءة مقدار وافر مما أنتجه جميع الـكتاب المحدثين تقريبا . قرأت الرسائل والأبحاث التى تعالج شئون المرأة وتبحث فى المسائل الجنسية الحادة فشغلت نفسى ، وأهمنى هذا السؤال :
لم لا يكون للنساء من فرص التجارب ما للرجال ؟ ؟ فيحيون حياتهم ... ولا يخفى عليك ما أقصده طبعا ، وكنت أعتقد أننى

فتاة عصرية ماهرة أتمتع بالحرية المطلقة ، وعواطفي واضحة ولو أنها خامدة ... تأملني ... تأملني ... (تضحك ضحكة هستيرية)

ولقد رحلت حتى أول من أمس إلى بورغوث لقضاء أسبوع وقد قررت أن أقوم بتجربتي ... لأرى الحياة ... الحياة الحقيقية العملية ... في الأحياء المغلقة ... فالشباب من الرجال مسموح لهم بالخروج أينما شاؤوا ليمتعوا أنفسهم ... فلم لا يتاح للشابات الفرص نفسها ؟ ؟

خرجت بالأمس وقصدت الملهى وحيدة ، وعزمت - بجسارة ملحة - على أن أعود إلى المنزل مشيا على الأقدام ، ولكن انهمر المطر غزيراً فأسرعت إلى السيارة حيث آويت إلى الفراش مباشرة .

والليلة أكدت العزم . فتناولت غذائي وحيدة في مطعم بشارع أكسفورد ، ثم سرت في ميدان بيكاديللي فهايماركت ثم على الشاطئ حيث عدت إلى ميدان ليستر ، وجلست على كرسي وسط الحديقة الصغيرة حتى أقبل رجل سكران قذر وجلس بجواري ، فقمت وعاودت السير متأملة الناس أجمعين . . . مئات بعد مئات منهم . . . يتدفقون خروجاً من الملاهي ويزحمون الأفاريز ... فكان في الواقع شعوراً مثيراً ... ولا تستطيع إدراك هذا الأمر - كما أعلم - لأنك رجل قضيت حياتك غير مراقب ولا مدلل ... بل شُجِّعْتَ على أن تكون طليقاً حراً ... ولكن بالنسبة لي فقد هزني ذلك الأمر . وكنت وحيدة سيدة نفسي إطلاقاً ... وأدركت مبلغ جهدي وتعبي ، فعرجت على أحد الشارب وتناولت فنجاناً من الشكولاتة . وكان يشغل المائدة المجاورة لي سيدتان مزعجتان وشاب عليه سيماء الجد وقد بدأتا تعاركانه ، ولو أن ما قالتاه له كان من البذاءة بمكان إلا أنه كان مضحكا للغاية ، وفي النهاية خرجوا جميعاً وهم يتشاتمون كالمعتاد !! عندئذ خرجت ثانية وقد تبدل كل شيء ، فقد اختفى الزحام وهدأت حركة المرور اللهم إلا بضع سيارات تجرى سرعة ، فأسرعت الخطى - لأنني رأيت النساء حولي يتلكأن - قاصدة بيكاديللي . ولم أكد أحاذي بيركلاي حتى انفجر أحد المصابيح المعلقة في وسط الشارع فأزعجني وراعني انفجاره المفاجئ فضحكت من نفسي وابتدأت أقلل من سرعتي وأخذت أراقب كل شيء حولي ،... فوجوه الناس من أغرب وأدهش ما لاحظت ... ثم ... ثم ... أوه يا عزيزي [تسبل جفونها متخيلة لمدة دقيقة] ثم ابتسم لي رجل ، وظننت لأول وهلة أنني أعرفه ، فتلفت حولي ولكنه بقي واقفاً مكانه ، ثم أخذ يتأثرني ، فأسرعت دقات قلبي وحاولت أن أستجمع شتات أعصابي الثائرة عسى أن تخمد والتمس في هدوء نفسي طريق الخلاص ، ولكنني عجزت ، وعلى غير وعي مني جريت إلى الجانب الآخر من الشارع ، ومن المؤكد أنه سخر مني ، وفي شارع كرزن أخذت ألوم نفسي بعد أن استجمعت قواي... لقد كنت جبانة ... ضعيفة ... غبية ... وعلى ذلك ، وزيادة في معاقبة نفسي من أجل فقدانها الشجاعة والإقدام لا من أجل شيء آخر ، فكرت أن أستسلم لأي رجل كان ... أوه ، أنا أعلم أنه شيء مهين حقير ... لا تنظر إلي هكذا ... ولكن تذكر أن هذا كان نتيجة دراسة الشهور بل السنين الطويلة للآداب المصرية ، فرغبت في تجربة الحياة ، ولم أكن أخشى على نفسي من شيء ... فإنني قادرة كل القدرة على صيانة عفافي... وإنما أردت الاستطلاع ليس غير . . . وعند ما قابلتك في شارع داون كانت ثورة العزم مالئة جوانحي . أوه يا عزيزي ... أليس كل هذا مخيفاً ؟ [تتنهد] إنه مرعب للغاية حتى لأن يقال ...

— اسمعي ، إنها لم تكن - كما تعلمين . . ولن أفوه بكلمة .

— أعلم أنه لا يمكنك ... ولكن ... أشعر أنه لا يمكنني أن أتقي العار عن هذه التجربة .

— لا عار قط .

— كم أتمنى أن ألجأ إلى دير ، هذه اللحظة مباشرة .

— إنك تفكرين في الأمر على أنه محزن - بينما هو مضحك - حينما تحللينه .

— عند ما أتزوج ويتقدم بي العمر أستعيد ذكراها على أنها كانت فكاهة ، ولكن إلى ذلك الوقت ، سأخر راكعة على ركبتي كلما فكرت فيها .

— لم أزر لندن وحيداً حتى هذا الأسبوع . . . وطلب مني أحد الأصدقاء أن أقيم هنا في هذا الطابق وتركني منفرداً وذهب لقضاء بعض شئونه .

— هل هذا صحيح ... حقاً

— نعم ... ولهذا السبب طلبت منك في البدء أن تخرجي... لأنني خفت الفساد .

— أحقاً ما تقول ؟

— نعم ... بكل تأكيد ، فقد ظننت أنك تضحكين مني وتهزأين بي .

— أهزأ ... يا إله السماء ! !

— نعم ... أليس من الحق أن يخشى المرء دائماً أن يكون

موضع سخرية ؟ والواقع أنه قلما يحدث هذا .

— أقل من أي شيء .

— جميع أصدقائي يقولون مثل هذا عند ما يقضون أوقات الخلاعة والسرور بالمدينة ... كما تعلمين .

— نعم .

— أفكر في نفسي ، إنها لفرصة عجيبة ، أن أبقى وحيداً ... وكل شيء ..

— تماما مثلما أفكر .

— نعم بالضبط .

— كم عمرك ؟

— واحد وثلاثون عاما .

— وأنا أيضاً .

— إنني جد آسف إن كنت قد أقلقتك وسببت لك الفزع .

— لقد كنتَ شفوقا وحريصاً منصفاً . ولست أدرى ؟ ماذا كنت أفعل لو كنت مع غيرك .

— وأنا أيضاً ، لست أدرى .

— كم أود أن تريق هذا الوسكي ... فإنني أكره حتى رائحته .

— لست مولعاً به ... ألا نجهز شاياً ؟

— لا ، بل يجب أن أذهب الآن ... حقيقة ...

— إن هذا ليسرني ... أمتأكدة أنت ؟

نعم كل التأكيد ... يجب أن أذهب .

— حسن ، (يذهب إلى النافذة) لا بد أن تكون مركبة في الموقف . ما هذا ؟ إن المطر ينهمر ...

— أوه ! ! ألا ترى مركبة هناك ؟

— (ينظر من خلال زجاج النافذة) : لا ... من سوء الحظ ...

— سأجد واحدة سريعا .

— لا — اسمعي — انتظرى قليلا حتى ينقطع المطر . ويمكننا تناول الشاى بعد كل هذا ...

— ولكن ... ولكن ...

— نحن أصدقاء ... ألسنا كذلك ؟ (ومد يده)

— نعم — حسن — منذ فترة وجيزة . (يتصافحان)

— الأفضل أن تخلعي معطفك ثانية .

— حسن . (يساعدها في خلع المعطف ويضعه على الكرسي)

— والآن فلنجهز الشاى

— أين الغلاية ؟

— في المطبخ . سأذهب وأملؤها ونستطيع أن نغليها هنا ، فالنار في المدفأة كافية . ويمكنك أن تخرجي فنجانين من الدولاب وكذلك بعض البسكويت .

— حسن .

(يخرج فتأخذ من الدولاب فنجانين وبعض البسكويت وتضعها على المنضدة) .

— (من الخارج) : كم ملعقة من الشاى أضعها في الوعاء ؟

— (متجهة نحو الباب) : إثنين ونصف كما أعتقد .

— حسن . تذهب نحو المدفأة وتحرك النار . ويدخل حاملا صينية صغيرة عليها غلاية ووعاء الشاى)

لم أضع ماء كثيراً في الغلاية حتى يغلى بسرعة (يضع الغلاية على النار)

— والآن علينا أن نأخذ أنفسنا بالصبر (تجلس على الأريكة)

— يمكننا أن لا نلقي بالاً إليها حتى ولو غلت .

— نعم ، أعتقد أن تلك هي الطريقة الوحيدة .

— ما اسمك ؟

— (مترددة) أوه ...

— (بسرعة) آسف جداً ... لقد نسيتُ ... إذا كان حَرِيًّا بك تبدأيني بالسؤال ... اسمي هَجْ لومبارد .

— واسمي ماري چيفون .

— إنه اسم جميل .

— أفكر دائما في أنه اسم إنجليزي فاتر ... ولكنه على ما ترى جميل ...

— أوه ، وقد دفعني إلى حبه كونه إنجليزياً .

— وأخيراً ، يتلهف قلبي على شيء أجنبي ...

— أثراً بعيداً أحدثته الآداب العصرية في الشباب .

— والآن ، لا تهزأ بي ...

— آسف ..

— أنت تعلم من نكون ، أليس كذلك ؟

— لا ، مَنْ ؟

— إننا ضحايا التمدين .

— أنحن هكذا ؟

— نعم ، إننا ضحايا — ولو أننا — في الحقيقة متوسطا التفكير عاديان ، إلا أننا غصنا إلى الأعماق ، ولكن كلانا حاول بمشقة جاهدة أن يحافظ على الأمان والسلام وسط هذه الحياة العصرية . فإن كنا قد تمادينا قليلا لكنا قد أجهزنا على فضيلتنا الحقيقية .

— أرى أنك جد ماهرة :

— (فجأة) أوه ، إياك ... إياك ...

— إياى ، ماذا ؟

— إياك أن تقودنى إلى الزلل ... سوف تقوض كل ما أسديته لى من معروف !

— المعروف الذى قمت به ؟ ؟ عما ذا تتكلمين ؟

— لقد فعلتَ كل طيبة فى العالم نحوى ... إنك أمين كل الأمانة ... ولطيف ... وفى الحقيقة لم أهز شعورك بقدر ما هزه إسمى

— لست أرى أى إحسان فى هذا ؟

— لقد أنقذتنى من نفسى — التى تدوى فى عواطفى الفائرة — ولكنها الحقيقة الكاملة .

— وهذا عين ما فعلته نحوى — لقد جعلتنى أحس العار من نفسى — ولا سيما حينما صرختِ .

— إننى مسرورة .

— وكذلك أنا ... ولِمَ سألتِنى ألا أقودك إلى الزلل ؟

— (بخبث) لأننى كنت ماهرة ... وكنت مفكرة عصرية .

— لا ، لم تكونى كذلك ... ولكنكِ كنتِ جميلة .

— لا تكن أحمق .

— ولكنك كنتِ ... إنه مخيف ...

— (بحدة) لا تعد إليها مرة أخرى ... مطلقاً ، مطلقاً ، إياك

— إياى أن أعود لماذا ؟

— من الآن فصاعداً سأكون على حقيقتي — نفسى الحقيقية — لا أن أكون نسخة من شلسى .

— وأنا أيضاً ... لن أكون بعد الآن صورة لابن المدينة الشاب

— يا للبلهاء ! !

— لقد طرأت علىّ فكرة ...

— وما هى . . . ؟

— اصغى إلىّ ... لِمَ لا نكون ...

— الماء يغلى .

— أوه ... (ينهض) لا ... لم يغل بعد .

— رأيتُ بعض البخار يتصاعد من الغلاية .

— قليلا جداً . حينما يتصبب الماء يكون قد تم غليانه ...

— ماذا كنتَ تريد أن تقول ؟

— سوف لا أقولها ... بعد ذلك ...

— ولِمَه ؟

— أخشى أن أهدم ما بنيتُ

— أوه ! ! (يبتسمان قليلا)

— ألم ينقطع هطول المطر ؟ (تنهض وتتوجه إلى النافذة) .

— ألا تزال السماء تمطر ؟

— ليست من السوء كما كانت — ومن العسير أن نحكم ونحن هنا — وإنما يمكن المرء أن يبدى رأيه مما يرى من أوحال .

— (يقترب من النافذة بجوارها) ألا تلمع الأخاديد كالزجاج .

— حقاً ، بالضبط ... وإذا نظرت من الركن قليلا أمكنك أن تلمح المتنزه (تلصق وجهها بالزجاج) .

— نعم ، إن قربه مما يزيد البهجة ...

— من أى جهات الريف قدمتَ ؟

— من أجام كِنْت ...

— لا ! !

— ولماذا ؟

— إننى خبيرة بتلك الجهة ... بين راى وفولكستون ...

— بالضبط ... إيفيتشيرش ... إن منزلى لبالقرب من إيفيتشيرش .

— ما أحبها إلى نفسى ... بل ما أبهج شميم البحر ، ورؤية الآجام وحواجز الماء والفضاء هناك .

— كم أنا سعيد لأنك تعرفينها ... وتحبينها ...

— انظر . حقاً . إن الماء يغلى الآن .

— تعالى وامسكى وعاء الشاى .

(يتقدمان معاً بجوار النار . ويجهزان الشاى ثم يضعان وعاء الشاى على الصينية) .

لنشرب الشاى ونحن جلوس على الأريكة ... ويمكننا أن نضع الصينية على ركبتينا .

— حسن . سأجلس هنا ... ناولنيها ...

— جميل . البسكويت أولا ...

(يضع الوعاء على الأرض بجوار أقدامهما ، ثم يعطيها الصينية ويجلس بجوارها)

— كن على حذر .

— أليست جلسة مريحة ! !

— فى الحقيقة لم تستقر بعد ... ولكن لا بأس . (تصب الشاى)

— أظن أننى لم أحب إنساناً مثل هذا الحب ... وبهذه السرعة ... من قبل .

— ما هذا الهراء ! ! ... أتريد سكرا ؟

— نعم ، من فضلك ... قطعتين .

— كان يخيل إلى منذ بضعة أشهر أنى أفضل الشاى ممزوجا بالليمون ... بدلا من اللبن .

— روسية صميمة ... كما يظهر ! !

— (مقهقهة) : بالضبط .

— إننى أود فى الحقيقة أن أقول لك شيئا هاماً ... ولكنك تفهميننى .

— أعرف ذلك .

— ماذا ... ؟

— لنفس الأسباب التى قلتها ... سوف تهدم كل شىء ...

— لا ... لم أفكر فى هذا ...

— دون أن تلجئنا إلى المجازفة ، بعد ؟

— (بكآبة) : لك ذلك ... (يرتشفان الشاى فى هدوء)

— ما ذا تعمل ؟

— ما ذا تقصدين ؟

— أعنى ما صناعتك ؟

— إننى مهيأ لأن أكون جنديا .

— أوه ...

— أسوأ ما فى الموضوع ... إذ معنى ذلك الهند ...

— أوه ، ما أعجب حياة هذا الصنف من الجنود .

— نعم ... الحياة وسط الأبهاء الفسيحة ، والمراوح المعلقة فى الأسقف وهى تماوج ، وصليل الثلج فى الكئوس ، والنساء الجميلات اللائى يتأودن فى مشيتهن كالهررة مرتديات أثوابهن البراقة اللامعة ...

— وارتداء السراويل (البنطلونات) البيضاء النظيفة ولعبة البولو والمفاجآت الشعبية والمحاورات التى تهز الشعور ... ألا ما أحب كل أولئك إلى نفسى ! ! !

— أتظنين أنك تحبينها ؟

— أى نعم ... ولو أنها فى البداية ... تبدو غريبة ...

— كم يسرنى أنك لم تكرهى الفكرة ...

— كم الساعة الآن ؟

— (واضعا فنجانه) : لم يتأخر الوقت ... انظرى ...
(يريها ساعته)

— (تضع فنجانها بشدة فتسمع قرقعته) يجب أن أذهب الآن ... حالا ... يجب أن أذهب .

— أوه ...

— حتى ولو كانت تمطر سيولا جارفة ... (تتوجه نحو المائدة)

— بودى أن تنتظرى بعض الوقت .

— من الحق أن أعجل فى الخروج ... فإنى أحس تعبا مضنيا ، كما أعتقد أنك تعب أيضا ... ويجب أن ننام ونستريح . وقد سكن المطر تماما ... وأرى عربة منتظرة هناك ...

— فلتذهب تلك العربة إلى الجحيم !

— والآن .

— رغبت أن أرافقك فى السير حتى تجد أخرى .

— يمكنك أن توصلنى إلى الخارج .

— حسن .

— ساعدنى على ارتداء معطفى .

— لك ذلك .

(يساعدها على ارتداء معطفها ... ثم يأخذ يديها بين يديه)

كم أنا مدين لك بالشكر ... على هذه الفترة السعيدة ...

— حقا ، ما أسعدنى بها ...

— دعينى أعبر لك ... الآن .

— عماذا ؟

— أتقبليننى زوجاً ؟

— لا تكن أحمق .

— لست أحمق . وإنما أعنى ما أقول .

— لم يختبر كل منا الآخر .

— بالعكس ... فقد خبر كل منا الآخر كل الاختبار .

— كلا ... لم يكن الوقت فسيحاً .

— لقد تولهت بك ...

— كلا ... بالتأكيد كلا ... إذ لا يمكنك ...

— ولم ؟

— لست أدرى .

— أتحاولين ؟

— (تطرق) : إياك ... وإلا فسأصرخ ثانية .

— ما أعزك إلى قلبى .

(يضمها إلى صدره ويهوى على شفتيها تقبيلا) .

— (مرتجفة) : والآن كادت تسقط قبعتى .

(يخرجان معاً وهو يحوطها بذراعه بحنان)

ستار ...؟

احمد فتحى عبد التواب

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)